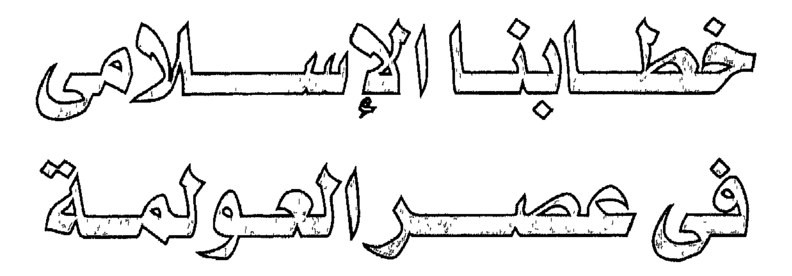
يوسف القرضاوى



دار الشروق

خطابنا الإسلامى
فى عصر العولمة

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk, com.

من الدستور الإلهى
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥).

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم : ٤).

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (الإسراء : ٥٣).

من مشكاة النبوة

عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**». رواه البخارى ومسلم.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النَّعَم**». رواه البخارى ومسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أما بعد)

فقد كتب كثيرون - بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م الشهيرة - يطالبون بوجوب إعادة النظر والمراجعة لخطابنا الدينى الإسلامى، وخصوصا بالنسبة للآخر، ونظرتنا إليه، وموقفنا منه.

وهذا الكلام بعضه حق، وبعضه باطل، وبعضه حق أريد به باطل.

فمن الحق: أن بعض الأفراد أو الفئات منا، تنهج نهج التشدد والغلو، ولا سيما مع الآخر، أى مع المخالفين فى الدين، أو المخالفين فى المذهب، أو المخالفين فى الفكر، أو المخالفين فى السياسة.

والحمد لله، أن وفقنى للوقوف فى وجه تيار الغلو والتطرف، منذ أمسكت القلم لأدخل ميدان التأليف(*).

ونهج الغلو والتشدد مكروه بمقتضى الفطرة، مذموم بحكم الدين، وهو أكثر ذما فى عصر تقارب فيه الناس ثم ازدادوا تقاربا، حتى أصبحوا كأهل قرية واحدة.

(*) فى أول كتاب لى، وهو كتاب (الحلال والحرام فى الإسلام) منذ سنة ١٩٦٠م، وأن أتبنى تيار الوسطية والاعتدال، الذى يتميز بعدة خصائص منها: التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة، والدعوة إلى =

ومن الحق أن يراجع الناس أفكارهم ومواقفهم واجتهاداتهم، على ضوء المستجدات، وفى إطار الثوابت التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان، كما قال علماؤنا بوجوب تغير الفتوى بتغير موجباتها.

فقد توجب هذه المراجعة تغييرا فى مضمون بعض المقولات، وقد توجب تغييرا فى أسلوبها، وقد توجب تغييرا فى ترتيبها فى سلم الأولويات، إلى غير ذلك.

ومن الحق أن كثيرا من المخلصين من المسلمين أنفسهم شعروا بضرورة هذا التغيير، ودعوا إليه، ومنهم إخوة نثق بدينهم وإيمانهم، كما نثق بتفكيرهم وسداد نظرتهم، فى أمريكا نفسها، وفى أوروبا أيضا.

وإذا كان هذا من الحق، فإن من الباطل ما يطالب به بعض الناس: أن نشكّل لنا دينا من جديد، نحذف منه ونبقى، ونغير فيه ونبدل، وفق ما تطلبه أمريكا وحلفاؤها!

وعلى هذا يجب أن نغير مناهج تعليمنا الدينى كلها، وخطابنا الدينى كله، حتى ترضى عنا أمريكا، وما هى براضية، فما يرضى هؤلاء إلا أن ننسلخ من ديننا ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ (البقرة: ١٠٩) ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ (البقرة: ١٢٠).

ولقد سلكت بعض الأنظمة العربية والإسلامية هذا السبيل منذ زمن، فاتخذت فلسفة (تجفيف المنابع) أى منابع التدين الإيجابى الذى يربى الشخصية المسلمة، والعقلية المسلمة، والنفسية المسلمة، وحذفت - ولا تزال تحذف - كل ما يغرس معانى القوة والبطولة والغيرة على الحق، والجهاد فى سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحاربت كل دعوة صادقة لإحياء الإسلام الصحيح، وتربية الناس عليه، وشجعت إسلام الخرافات والأضرحة والدروشة، لأنه مشغول عنها، بل سائر فى ركابها، ساكت عن مظالمها وانحرافاتها.

= الحوار والتسامح مع المخالفين. وتجسد هذا النهج بوضوح أكثر، حينما برزت (الصحوة الإسلامية المعاصرة) منذ أوائل السبعينيات ولمست حاجتها إلى التسديد والترشيد، حتى لا تحرفها موجات الغلو والتنطع الذى اعتبره الإسلام من مهلكات الأمة.

إننا نرحب بتجديد الخطاب الدينى، والارتقاء به، وتطويره إلى ما هو أحسن وأمثل: فكرة وأسلوبا، أو مضمونا وشكلا، والمسلم ينشد الأحسن دائما. ولكنا نحذر من خطورة التنادى المستمر بتغيير الخطاب الدينى الإسلامى فى هذا الوقت خاصة، ولا سيما من أقلام مشبوهة، لا يهمها أمر الدين ولا أهله، وليس لله ولا للآخرة مكان فى حياتها الفكرية أو السلوكية، ولا تبالى برضا الله أو سخطه، لكن يعنيها كل العناية: أن يرضى السيد الأمريكى عنها، وأن ينفحها ببعض بركاته وكراماته!

إن التغيير فى هذا الوقت، أو فى هذه (الهوجة) محفوف بخطرين:

الأول: خطر الإذعان للضغوط الأمريكية المدججة بالسلاح والمال والعلم والدهاء والتخطيط، فيستجيب لهم منا من يستجيب رغبا ورهبا، ويصنع لنا (إسلاما أمريكانيا) لا يهمه ارضاء الله بقدر ما يهمه إرضاء (العم سام)!

والثانى: خطر تمكين الفئات اللادينية: لتساهم فى توجيه المرحلة القادمة للأمة، بترويج فكرها المستورد، ومفاهيمها الدخيلة، تحت عنوان التجديد والتطوير، وإنما هو التبديد والتخريب.

فالواقع أننا نخشى من تيارين كلاهما أشد خطرا من الآخر:

١ - تيار الغلو والتشدد والتنطع، الذى يريد أن يضيق على الأمة ما وسع الله. ويعسر عليها ما يسر الله، وإن يعادى العالم كله، ويقاتل الناس جميعا، ولو سالموا المسلمين، ولا يتسامح مع مخالف له، مسلما أو غير مسلم.

٢ - وتيار الانفلات والتسيب، الذى اتخذ إلهه هواه، فلا يرجع إلى أصل، ولا يتقيد بنص، ولا يستند إلى إمام معتبر. إنه رفض اتباع أئمة الإسلام، ورضى بتقليد أئمة الغرب، فمنهم يستمد، وعليهم يعتمد، وبهم يصول ويجول!

لهذا كان على أهل العلم والدعوة، وخصوصا دعاة المنهج الوسطى: أن يقولوا كلمتهم، ويبينوا وجهتهم، ويشرحوا رسالتهم، فى خضم هذه الفتن المتلاحقة التى تذر الحليم حيران، وفى هذا الجو الرهيب الذى يحاط فيه بالأمة من كل جانب. وعليهم أن يعضوا بالنواجذ على الحق الذى ائتمنهم الله عليه، معتصمين بحبل الله المتين. ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ ﴾

(الأحزاب: ٣٩). ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وأود أن أنبه هنا على حقيقة ناصعة لا ريب فيها، وهي: أن خطابنا الإسلامى - بحمد الله تعالى - منذ نحو أربعين سنة أو تزيد[1]: هو هو، لم يتغير ولم يتبدل. منذ هدانا الله بفضله وتوفيقه، إلى اختيار (منهج الوسطية) وهو المنهج الذى رأيته معبرا عن الإسلام الحق، وعن منهج الأمة التى مدحها الله بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وحقيقته: إقامة الوزن بالقسط فى الأمور كلها، بعيدا عن الطغيان والاخسار، اللذين حذر القرآن منهما، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧ - ٩).

فما نقدمه اليوم ليس جديدا على نهجنا، ولا هو من ثمرات ١١/٩/٢٠٠١ ولذا نجد فيه مقتبسات كثيرة من كتبنا القديمة.

الجديد اليوم: أن كثيرا من المسلمين ممن كانوا يعارضون تيار الوسطية: أصبحوا ينادون به، ويشعرون بالحاجة إليه، حتى بعض الحكام انتبهوا إلى أهمية هذا الأمر، وضرورة التمسك به، وتربية الأمة عليه، بعد أن كانوا يرفضونه، ويقاومون دعاته.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية: ٣٧).

ولا أريد أن اختتم هذه المقدمة، حتى أنبه على قضية مهمة، وهى: أن أمريكا والغرب يطالبوننا نحن المسلمين، أن نراجع خطابنا الدينى، وأن تسعى لتغييره وتطويره، ولكن أحدا لم يطلب منهم - كما طلبوا منا - أن يغيروا هم من خطابهم. فاليمين المسيحى المتطرف هو الذى يقود أمريكا اليوم، ويرسم سياستها، والرؤساء الأمريكان من عهد (كارتر) إلى اليوم، من أنصار هذا اليمين، حتى جاء (بوش) الصغير، وجسد هذا التطرف اليمينى بقوة ووضوح، وقال فيما قال: إن ربّى أمرنى: أن أضرب ابن لادن فضربته! وأمرنى أن اضرب صدام حسين، فضربته! كأنه نبى يوحى إليه!

---

(١) أى منذ نشرت الطبعة الأولى من كتاب: (الحلال والحرام فى الإسلام) سنة ١٩٦٠م.

هذا اليمين المسحيي المتطرف هو الذى يساند الصهيونية المغتصبة الظالمه فى اغتصابها وظلمها، ويحمى بقوته ما اغتصبته بالدم والعنف، ويؤيدها فى اعتداءاتها المستمرة على الشعب الفلسطينى، بالمال والسلاح والفيتو، بناء على رؤى واجتهادات دينية عنده، هى التى زينت له حماية الاغتصاب والطغيان، والمعاونة على الإثم والعدوان. فلماذا لا يراجع بوش وجماعة اليمين المتصهينين رؤاهم واجتهاداتهم التى دفعتهم إلى تأييد العدوان والمعتدين، وغض الطرف عن كل ما يصيب أبناء فلسطين من الأذى والبلاء فى أنفسهم وأموالهم وذراريهم وبيوتهم ومزارعهم ومرافق حياتهم كلها؟!!

ولماذا لا يطالب اليهود بمراجعة خطابهم الدينى الذى أغراهم باغتصاب فلسطين، واخراج أهلها منها، وتشريدهم فى آفاق الأرض بغير حق، وضرب من بقى منهم بالصواريخ والمروحيات والدبابات، تقتل وتدمر بلا هوادة ولا رحمة؟ ولماذا لم يفعل ذلك آباؤهم منذ نحو تسعة عشر قرنا من الزمان، حينما ضربهم الرومان ضربة قاضية، قطعتهم فى الأرض أمما؟ لماذا أغفل آباؤهم الوعد الإلهى المزعوم لهم آلاف السنين، ثم تذكروه فجاة فى هذا العصر؟

أتمنى على الذين يدعون المسلمين أن يراجعوا خطابهم الدينى: أن يدعوا اليهود والمسيحيين أن يغيروا خطابهم ولاهوتهم أيضا، فهذا هو مقتضى العدل والمساواة بين الخصوم.

أما نحن فقد راجعنا خطابنا من قديم، بدعوة من ديننا نفسه، لا بطلب من بوش ولا غير بوش.

والحمد لله رب العالمين.

الدوحة: شوال ١٤٢٣هـ | **الفقير إليه تعالى**
يناير ٢٠٠٣م | **يوسف القرضاوى**

خطابنا الدينى فى عصر العولمة
تمهيد
هل يتغير الخطاب الدينى؟

المقصود بالخطاب الدينى أو الإسلامى:

قبل أن نتحدث عن خطابنا الدينى الإسلامى، وما ينبغى أن يكون عليه: يحسن بنا أن نحدد: ما المقصود من هذه الكلمة التى شاعت وانتشرت على الألسنة والأقلام؟

فى رأيى أن المراد بخطابنا الدينى الإسلامى: البيان الذى يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين، لدعوتهم إلى الإسلام، أو تعليمه لهم، وتربيتهم عليه: عقيدة أو شريعة، عبادة أو معاملة، فكرا أو سلوكا. أو لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم: فردية أو اجتماعية، روحية أو مادية، نظرية أو عملية.

وهذا الخطاب يتميز بالسعةوالشمول، بقدر سعة الإسلام وشموله، فهو يشمل (الفرد): بجسمه وعقله وروحه ووجدانه. . ويشمل (الأسرة) بمعناها الموسع: بعلاقاتها الزوجية والأبويةوالأخوية والرحمية. . ويشمل (المجتمع) بكل طبقاته وتكويناته الدينية والعرقية واللغوية والاقتصادية وغيرها. . . ويشمل (الأمة) بكل شعوبها وأوطانها، وهى أمة الإجابة، التى جعلها الله أمة وسطا، واعتبرها أمة واحدة. . . ويشمل (الدولة) التى تحكم الأمة بما أنزل الله لها من الكتاب والميزان، وتقيم القسط بين الناس، وتحرس الدين، وتسوس الدنيا به، لا تريد علوا فى الأرض ولا فسادا. .

ويشمل (العالم) كله، فهو يوجه الدعوة إليه، ويقيم العلاقة معه متعاونا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، متضامنا فى مواجهة الطغيان والاستكبار فى الأرض، مساندا للمظلومين والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام ظلم الجبابرة، وجبروت الظالمين.

يتعرض هذا الخطاب لقضايا دينية خالصة، تتعلق بالعقائد والغيبيات، أو بالعبادات الشعائرية.

وقد يتعرض لقضايا أخلاقية، تتصل بالقيم العليا، والفضائل والسلوكيات الإنسانية الراقية.

وقد يتعرض لقضايا اجتماعية، تتعلق بالرقى بالمجتمع من حضيض المادة والإباحية والنفعية التى عرفت فيها المجتمعات المادية المعاصرة، وحل مشكلات المجتمع من الفقر والجهل والمرض والرذيلة والفساد الخلقى، والتظالم الاجتماعى، والاستبداد السياسى.

وقد يتعرض لقضايا فكرية أو اقتصادية أو سياسية أو دولية، ليقدم العلاج لها فى ضوء تعاليم الإسلام.

الخطاب الإسلامى إذن ليس مقصورا على الروحانيات وشئون الغيب، كما يريد بعض الناس أن يحصره.

ونظرا لهذا الشمول والامتداد والتنوع: كان لهذا الخطاب خطره وأثره، إذا وضع فى يد من لا يحسنه، ولم يعدّ الإعداد الكافى للقيام به، لا من حيث الفقه فى الدين، ولا من حيث الفقه فى العصر والواقع، فهو يخلط ويخبط، ويهرف بما لا يعرف. وضحية ذلك: المجتمع المسكين، والدين نفسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يتخذ هذا الخطاب أساليب شتى قديمة وحديثة: من الخطبة والمحاضرة والدرس والحديث والمقالة والرسالة والكتاب والندوة والبحث الميدانى، والتحقيق الصحفى، والبرنامج الإذاعى أو التليفزيونى، والعمل الدرامى، ويمكن أن يستخدم فيه النثر والشعر والزجل، والقصة والمسرحية.

كما يمكن أن يستخدم فيه كل أجهزة الأعلام المعاصر وآلياته : المكتوبة والمسموعة والمرئية، محلية وإقليمية وعالمية، من الإذاعات الموجهة، إلى القنوات الفضائية، إلى شبكة (الإنترنت).

وهذا الخطاب الإسلامى : قد يظهر فى صيغة دعوية تربوية، أو فى صيغة فقهية تشريعية، أو فى صيغة فكرية فلسفية، وإن كان التركيز الأكبر على (الصيغة الدعوية) فهى الأصل والأساس فى الخطاب الدينى.

هل يتغير الخطاب من عصر إلى آخر؟

هل يتغير الخطاب الدينى من عصر إلى آخر؟ وهل الخطاب فى عصر العولمة[١] غيره فيما قبله من العصور؟ وهل كل عصر له خطاب يخصه؟ هل الخطاب مثل أزياء الناس : زى للشتاء وزى للصيف، وزى لأهل المدينة وآخر لأهل القرية، وزى لأهل كل مهنة يختلف عن زى أهل مهنة أخرى؟

أليس الدين - الذى يستمد منه الخطاب - ثابتا، فلماذا يتغير الخطاب ويتنوع بأسباب شتى؟

هذه التساؤلات تحتم علينا أن نبين : أن الدين فى أصوله وكليّاته العقائدية، والتعبدية والأخلاقية، والشرعية، لا يتغير، ولكن الذى يتغير هو أسلوب تعليمه والدعوة إليه.

وإذا كان المحققون من أئمة الدين وفقهائه قد قرروا : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. والفتوى تتعلق بأحكام الشرع. فإن نفس هذا المنطق يقول : إن تغير الدعوة أو الخطاب - بتغير الزمان والمكان والعرف والحال - أحق وأولى.

فما يقال للمسلمين غير ما يقال لغير المسلمين.

وما يقال للمسلم الحديث العهد بالإسلام غير ما يقال للمسلم العريق فى الإسلام

(١) راجع فى (مفهوم العولمة) كتابنا (المسلمون والعولمة) ص ٩ - ١٧ طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

وما يقال للمسلم الملتزم المستقيم، غير ما يقال للمسلم المتفلت العاصى لربه.

وما يقال للمسلم فى دار الإسلام غير ما يقال للمسلم فى مجتمع غير إسلامى.

وما يقال للشباب غير ما يقال للشيوخ.

وما يقال للنساء غير ما يقال للرجال.

وما يقال للأغنياء غير ما يقال للفقراء.

وما يقال للحكام غير ما يقال للمحكومين.

وما يقال فى قرية من قرى الخليج، أو صعيد مصر، أو ريف باكستان، غير ما يقال للناس عبر قنوات الفضاء، ويشاهده ويسمعه العالم.

وما يقال للناس فى عصور العزلة: غير ما يقال لهم فى عصر ثورة الاتصالات، التى جعلت العالم كله قرية واحدة، وهذا أهم ما تدل عليه كلمة (عصر العولمة) أى عصر التقارب العالمى.

لا شك أن هناك أقدارا مشتركة تقال للجميع ويخاطب بها الجميع، ولكن يبقى هناك خصوصية لكل فئة ممن ذكرنا، توجب على العالم والداعية أن يوجه لها خطابا خاصا، يجيب عن تساؤلاتها، ويحل مشكلاتها، ويرد على شبهاتها.

لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الأنصارى إلى اليمن، قال له: إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله. . . . الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر فى شرح الحديث فى تعليل البدء بهذه الجملة «إنك تقدم على قوم أهل كتاب»: هى كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة، فلا يكون العناية فى مخاطبتهم، كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان[2].

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس فى مواضع من كتابه بأرقام (١٣٩٥، ١٤٩٦، ١٤٥٨) وغيرها. ورواه مسلم أيضا.

(٢) فتح البارى (٣/ ٣٥٨) شرح الحديث رقم (١٤٩٦) فى كتاب الزكاة.

ومن هنا لا يستغرب أن يكون خطابنا الدينى فى عصر العولمة مغايرا ـ بعض المغايرة ـ لخطابنا الدينى قبل عصر العولمة، إذا ثبت لنا فعلا أن هناك عصرا جديدا يحمل طابع العولمة.

ربما كان خطابنا ـ نحن المسلمين ـ قبل ذلك العصر، ذا طابع محلى، أعنى: أننا نخاطب فيه أنفسنا، ولا نفترض أن هناك أحدا يسمعنا، أو يقرؤنا، أو يطلع على إنتاجنا العلمى والدعوى.

وهذا ـ بلا ريب ـ صحيح، وينطبق على طوائف منا، كانت تكلم نفسها فى داخل دارها، ولا تحسب أن أحدا ينصت لقولها، أو يهمه خطابها، وربما كان خطابها يجرح الآخر، أو يؤذيه أو يخيفه، من مضمون خطابه أو لهجته أو من سياقه.

شاركت فى أحد البلاد الإسلامية فى مؤتمر إسلامى كبير، حضره نحو خمسمائة شخص من أنحاء العالم، وقام أحد المشاركين، ففاجأ الجميع بكلام خرج فيه على خط المؤتمر واتجاهه، وقال: ليس هناك شىء اسمه حوار الأديان، أو تقارب بين الأديان، لأنه لا يوجد إلا دين واحد، وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ (آل عمران: ١٩) ولا يوجد أديان سماوية غير الإسلام. كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ (آل عمران: ٨٥).

وكان بجوارى رئيس المؤتمر، فقلت له: إن هذا المتحدث قال كلاما خطيرا، يمكن أن يشوه صورة هذا المؤتمر، واتجاهه الإيجابى، إذا لم يرد عليه، ويفند ما قاله. قال: هذا كلام يقوله بيننا، ولن يتجاوز هذه القاعة.

قلت له: هذا مردود عليه من وجهين:

الأول: أنه لم يعد هناك أحد يكلم نفسه، أو فئة تستطيع أن تحصر كلامها داخل قاعة مغلقة، فهنا صحفيون ومندوبون لإذاعات وتليفزيونات، ينقلون كل ما يقال هنا إلى أنحاء الدنيا.

والثانى: أن ما قاله فى ذاته غير صحيح، فهناك أديان غير الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ (الكافرون: ٦).

والآية التي استدل بها ترد عليه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (المائدة: ٧٧).

ثم نحن مأمورون بالحوار دينا، فقد قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

وربما كان هذا الخطاب يحتقر الآخرين أو لا يلقى لهم بالا، ولا يقيم لهم وزنا. وربما كان مشحونا بالغضب عليهم، والبغض لهم بسبب موقفهم من الإسلام وقضايا أمته، والوقوف مع أعدائه.

وربما كان هذا نتيجة لعدم المعرفة الكافية بالآخر. وقد قال العرب قديما: من جهل شيئا عاداه.

ربما كان هذا أو كان غيره، فكل هذا مسوغ للنظر فى خطابنا الدينى - المسموع والمقروء - هل هو ملائم لعصرنا أو لا؟ وهل يتحقق به الدعوة إلى الله على بصيرة؟ وهل استوفى شروط الكلام البليغ الذى يجسد المطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته؟

ومما لا خلاف عليه: أن الخطاب الدينى يختلف باختلاف المدرسة التى ينتمى إليها الداعية ويعبر عنها.

فخطاب الصوفى غير خطاب الأثرى، وخطابهما غير خطاب المتكلم. وهو غير خطاب الفقيه.

وخطاب الفقيه الملتزم بتقليد مذهب غير خطاب الفقيه المتحرر من ربقة التقليد.

وخطاب الداعية المخاصم للتصوف كله غير الذى يأخذ منه ما صفا ويدع ما كدر.

وخطب الداعية المحصور فى تراث السابقين غير الذى انفتحت عينه على العصر وثقافته وتياراته.

وخطاب الداعية الذى لم يخرج من بلده غير الداعية الذى جاب الآفاق، وعرف الناس والأديان والمذاهب والثقافات.

وكل هذا من أسباب تنوع الخطاب الديني في الجملة، وإن كان الأصل المتفق عليه: أن يستمد الجميع من مُحكمات القرآن، وصحيح السنة، وما اتفق عليه سلف الأمة، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة.

والمنهج الأمثل: أن يجمع خطابنا الدعوى الإسلامى: بين روحانية المتصوف، وتمسك الأثرى، وعقلانية المتكلم، وعلمية الفقيه. يأخذ من كل صنف خير ما عنده، ويمزج بينها فى تناسق وانسجام.

القرآن نفسه دليل تغير الخطاب:

وأقوى دليل على تغير الخطاب بتغير ملابساته وموجباته: هو القرآن ذاته، فقد رأينا خطاب القرآن المكى (أى قبل الهجرة إلى المدينة) غير خطاب القرآن المدنى، وهو أمر معروف مقرر لدى دارسى القرآن، ويلحظه كل من يقرأ القرآن، ويعرف السور المكية فيه من السور المدنية.

فموضوعات القرآن المدنى تختلف عن موضوعات القرآن المكى فى الجملة، وأسلوب القرآن المدنى يختلف عن أسلوب القرآن المكى فى الجملة.

موضوعات القرآن المكى تدور ـ أساسا ـ حول ترسيخ العقيدة من التوحيد بأقسامه المختلفة، وإثبات النبوة، والجزاء فى الآخرة، والإيمان بالغيب، والدعوة إلى العمل الصالح، ومكارم الأخلاق، وما يؤيد ذلك من قصص الرسل والمؤمنين، والرد على المخالفين.

وموضوعات القرآن المدنى تدور حول إقامة المجتمع المؤمن، والتشريع له، ولذا لم ينزل فى مكة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فكل ما يحتاج إليه المجتمع من عبادات ومعاملات وتشريعات وعقوبات، تجده فى السور المدنية.

وأسلوب القرآن المكى غير أسلوب القرآن المدنى فى الجملة أيضا، فالأسلوب المكى تغلب عليه الشدة والحرارة، والنبرة السريعة، وتكرار بعض اللوازم، كما فى سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمن، وسورة المرسلات. يخاطب القلوب، ويثير المشاعر، ويجابه المكابر، ويفحم المعارض.

بخلاف الأسلوب المدنى، فإنه أسلوب تعليمى تشريعى هادئ النفس، هادئ

النبرة، يخاطب العقول أولا، وإن لم يخل من مخاطبة القلوب، لأن موضوعه التشريع والتعليم.

وسر تغيير الخطاب هنا وهناك: أن سور القرآن مكية ومدنية تراعى المخاطب وتكلمه بما يناسبه: القرآن المكى يخاطب - أولا - المشركين المناوئين لعقيدة التوحيد، والجاحدين لنبوة محمد، والمتطاولين عليه، ولذا ساد الخطاب لغة الشدة والسخونة. وأما القرآن المدنى فهو يخاطب الجماعة المؤمنة الجديدة، التى يكلفها بالأوامر والنواهى، والتوجيهات والتشريعات، ولذا ساد الخطاب لغة الهدوء والتعليم.

ومن قرأ سورة مدنية كسورة البقرة، وسورة مكية كسورة الشعراء، يتبين له الفرق فى الخطاب واضحا بين السورتين، فى المضمون وفى الأسلوب.

مشروعية تجديد الدين:

ومن الأدلة على شرعية تطوير الخطاب أو تحسينه أو تغييره إلى ما هو أمثل وأليق وأبلغ: الحديث النبوى الذى رواه أبو داود والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»[١].

وقد سمعت بعض الدعاة الكبار فى عصرنا، يرفض هذا الحديث، بدعوى أن الدين ثابت، ولا يتجدد. وما معنى تجديد الدين؟ هل نصدر طبعة جديدة للقرآن الكريم مزيدة ومنقحة؟ إن القرآن لا يقبل الزيادة ولا النقص، ولا التغيير والتبديل، فلا معنى إذن للتجديد.

ورأيى: أن رد الحديث الذى صححه عدد من الأئمة المختصين بمثل هذا المنطق: لا يجوز. فهذه طريقة المنحرفين من أهل البدع والضلالات الدينية والفكرية. فهم يفسرون النص تفسيرا خاطئا، ويعطونه مضمونا لا يستقيم مع منطق العقل أو منطق الدين، ليتاح لهم أن يحكموا ببطلانه ورده.

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الملاحم من سننه، والحاكم فى المستدرك، والبيهقى فى معرفة السنن.

ولكن المنهج المستقيم: أن نثبت النص الصحيح، ونفسره تفسيرا مقبولا، فى ضوء القواعد المقررة، والمسلّمات الدينية والعلمية.

ولهذا نقول هنا: إن هذا الحديث ثابت حيث أثبته أهل العلم، وهو بهذا يعطينا مبدأ مهما، وهو: شرعية التجديد للدين. ولكن ما معنى التجديد المطلوب؟

ونبادر فنقول: إن التجديد لا يمس (الثوابت) التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان: من العقائد والعبادات وأصول الفضائل والرذائل، والأحكام القطعية فى ثبوتها ودلالتها. فهذه هى التى تجسد وحدة الأمة الفكرية والشعورية والسلوكية، وتحفظها من أن تذوب وتتفكك.

لا يمس التجديد هذه الثوابت، إلا من جهة أسلوب عرضها وتعليمها للناس، فهذا هو الذى يدخله التجديد والتطوير.

أما غير الثوابت، فهى التى يدخلها الاجتهاد والتجديد ـ ومعظم أحكام الشريعة من هذا النوع ـ وهى معترك لأفهام أهل العلم الأصلاء، ففيها مجال للاجتهاد الجزئى، والاجتهاد الكلى، الاجتهاد المقيد، والاجتهاد المطلق، الاجتهاد الانتقائى، والاجتهاد الإنشائى.

جمهرة الأحكام فى تراثنا الفقهى مختلف فيها بين المدارس والمذاهب، نتيجة لاعتبارات شتى عند كل فقيه. وفى هذا متسع للمجتهد المعاصر: أن ينتقى منها ويتخير ما هو أهدى سبيلا، وأرجح دليلا، وأوفق بتحقيق مقاصد الشرع، ومصالح الناس فى هذا العصر.. وهذا ما نسميه (الاجتهاد الانتقائى).

وهناك اجتهاد إنشائى إبداعى، فى المسائل الجديدة التى لم يتطرق إليها الفقهاء السابقون، لأنها لم تكن فى زمنهم، ولم تخطر ببالهم، فعلى فقهاء عصرنا أن يجتهدوا لبيان حكم الشرع فى هذه القضايا، كما اجتهد الأئمة السابقون لبيان الحكم فى قضايا زمنهم، مثل كثير من القضايا الاقتصادية والطبية والعلمية والسياسية. وسيجدون فى سعة الشريعة وخصوبة فقهها: حلا لكل مشكل، ودواء لكل داء.

ترشيد الصحوة:

لقد أصدرت جملة كتب ورسائل[1] في ترشيد الصحوة، وتسديد مسيرتها، ومضمونها: ترشيد الخطاب الديني نفسه، وآخرها: كتاب جدّ مهم في نظرى، سميته (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) رجوت به أن تنتقل الصحوة من طور إلى طور، أعنى من طور (المراهقة) بما يمثله من أحلام وخيالات وتمرد وعاطفية، إلى طور (الرشد) بما يمثله من وعى وهدوء وعقلانية ونضج، ويتمثل فى التزام (الخطوط العشرة لترشيد الصحوة)، والانتقال بها إلى المرحلة المنشودة.

هذه الخطوط العشرة التى تنتقل بها الصحوة:

١ ـ من الشكل والمظهر، إلى الحقيقة والجوهر.

٢ ـ من الكلام والجدل، إلى العطاء والعمل.

٣ ـ من العاطفية والغوغائية، إلى العقلانية والعلمية.

٤ ـ من الفروع والذيول، إلى الرءوس والأصول.

٥ ـ من التعسير والتنفير، إلى التيسير والتبشير.

٦ ـ من الجمود والتقليد، إلى الاجتهاد والتجديد.

٧ ـ من التعصب والانغلاق، إلى التسامح والانطلاق.

٨ ـ من الغلو والانحلال، إلى الوسطية والاعتدال.

٩ ـ من العنف والنقمة، إلى الرفق والرحمة.

١٠ ـ من الاختلاف والتشاحن، إلى الائتلاف والتضامن.

وقد تحدثت فى فصول الكتاب المذكور عن كل نقطة من هذه النقاط، أو كل خط من هذه الخطوط: بما يشرحه ويلقى الضوء عليه، ويؤصله تأصيلا شرعيا موثقا

---

(١) منها: (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) و(الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى) و(الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) و(أين الخلل؟) و(أولويات الحركة الإسلامية) و(فقه الأولويات) وغيرهما. كما أصدرت سلسلة (رسائل ترشيد الصحوة) وقد ظهر منها الآن اثنتا عشرة رسالة.

بأدلته من الكتاب والسنة، وذلك حتى تتضح المفاهيم، وتقوم الحجة، ولا تلتبس الحقائق بالأباطيل، وحتى يتعلم الجاهل، ويقتنع المتردد، وينهزم المكابر، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيّ عن بينة.

وكم أود أن تنتقل هذه النقاط أو الخطوط العشرة إلى خطابنا الدينى المعاصر، وخصوصا فى هذا الزمن الذى يتهم فيه الإسلام والمسلمون بالعنف والإرهاب والغلو والتعصب والانغلاق على الذات، ورفض الآخر، إلى آخر ما يقال.

ولا يمكننا أن نتجاهل دعاوى عدونا أو اتهاماته لنا، لأن صوته عال، شئنا أم أبينا، وأبواقه تملأ أركان الدنيا الأربعة، ولذا كان لا بد لنا أن ندافع عن أنفسنا، ونقول كلمتنا، وتبليغ رسالتنا.

وأرى من المهم للدعاة فى عصرنا: أن يقرءوا كتابى هذا عن الصحوة، فهو متمم لكتابنا هذا، أو قل: كتابنا هذا متمم له، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر. وقد كان يمكن أن أسميه: (الخطاب الإسلامى من المراهقة إلى الرشد) لولا أنى شغلت بترشيد الصحوة منذ عدة عقود، فآثرت العنوان الذى ظهر به. والمقصود واضح على كل حال.

الخطاب الدينى كما رسمه القرآن

منهج الخطاب الديني كما رسمه القرآن

رسم القرآن منهج الخطاب الديني أو الدعوة الدينية في آية كريمة من سوره المكية، حين قال: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

فهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، ولكل من يتأتى خطابه من الأمة من بعده. إذ الدعوة إلى الله، أو إلى سبيل الله ليست خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، بل أمته أيضا مطالبة بأن تقوم بدعوته معه وبعده.

وفي هذا يقول القرآن أيضا في مخاطبة الرسول: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف: ١٠٨).

فكل من اتبع محمدا ﷺ، ورضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا: هو داع إلى الله، وداع على بصيرة، بنص القرآن ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾.

وبهذا كانت الأمة مبعوثة إلى الأمم بما بعث بها نبيها، فهي تحمل رسالته، وتحتضن دعوته، كما قال ﷺ للأمة: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[(١)].

وقال الصحابي ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ لرستم قائد جيوش الفرس: إن الله ابتعثنا، لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوضوء عن أبي هريرة.

من هنا نرى أن آية سورة النحل ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ترسم معالم المنهج المنشود للدعوة أو الخطاب الديني السليم.

معالم المنهج المطلوب للدعوة للخطاب الديني:

وضع القرآن الكريم لمنهج الدعوة إلى الله وإلى سبيله، وسائل تعين الداعية المسلم على أداء مهمته، وتبليغ رسالته. وقد أوجزها القرآن - بإعجازه البياني - في كلمات معدودة.

١ - الدعوة واجب كل مسلم:

وأول هذه المعالم: العلم بأن هذه الدعوة فرض على كل مسلم. وهو مقتضى الأمر من الله بالدعوة، فكل مسلم مأمور بالدعوة إلى دينه بصورة ما، وبطريقة ما، كما قال تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

كل ما في الأمر: أن صورة الدعوة تختلف من شخص إلى آخر، حسب الاستطاعة والإمكان.

فهناك من يدعو إلى الله بتأليف كتاب أو كتب.

وهناك من يدعو إلى الله بإلقاء محاضرة في جامعة أو في مركز ثقافي.

وهناك من يدعو إلى الله بإلقاء خطبة جمعة في مسجد أو إلقاء درس ديني فيه.

وهناك من يدعو بالكلمة الطيبة، والصحبة الجميلة، والأسوة الحسنة.

وهناك من يدعو بالإنفاق على الدعاة، أو على نشر إنتاجهم، أو على تأسيس مركز للدعوة، على نحو ما قال عليه الصلاة والسلام: «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا»[1] ونحن نقيس عليه فنقول: «من جهز داعيا إلى الله فقد دعا».

---

(١) رواه البخاري (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) عن زيد بن خالد.

٢. دعوة ربانية إلى منهج الله:

وثانى هذه المعالم: أن يوقن الداعية: أنه يدعو إلى سبيل الله، أى طريق الله، أى منهج الله الذى رسمه لهداية الناس، حتى يحسنوا العبادة لله وحده، ويحسنوا التعامل بعضهم مع بعض، وبذلك يسعدون فى الدنيا، ويفوزون بحسن المثوبة فى الآخرة.

إن الداعية المسلم هنا لا يدعو الناس إلى نفسه، أو إلى قومه، بل يدعوهم إلى ربه وحده ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ (آل عمران: ٧٩) إنه لا يدعو إلى نظام بشرى، ولا إلى فلسفة أرضية، ولا إلى قانون وضعى، وضع بأمر إمبراطور أو ملك أو رئيس أو أمير، بل يدعو إلى تحرير البشر من العبودية للبشر، فلم يعد ـ فى نظر الإسلام ـ بشر يملك أن يشرع لبشر تشريعا مطلقا دائما، يحلل له ما يشاء، ويحرم عليه ما يشاء، كما حدث عند أهل الكتاب فى فترة من فترات التاريخ، وهو ما أنكره القرآن بشدة حين قال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (التوبة: ٣١).

آن للبشر أن يتحرروا من عبودية بعضهم لبعض، وربوبية بعضهم لبعض، وأن يكونوا جميعا عبادا لله وحده، الذى خلقهم وسخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

ولهذا كانت رسائل محمد ﷺ إلى ملوك أهل الكتاب مختومة بهذا الآية: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

٣. دعوة الناس بأسلوبى الحكمة والموعظة:

وثالث المعالم لهذا المنهج أنه يقوم على دعوة الناس عامة، والمسلمين إلى منهج الله بأسلوبين: أولهما: الحكمة، وثانيهما: الموعظة الحسنة.

أسلوب الحكمة:

والحكمة يراد بها: مخاطبة العقول بالأدلة العلمية المقنعة، وبالبراهين العقلية الساطعة، التى ترد على الشبهات بالحجج والبينات، وترد المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات إلى الكليات، والفروع إلى الأصول.

كما أن من الحكمة: مخاطبة الناس بما يفهمون، وما تسيغه عقولهم، لا بما يعجزون عن فهمه، وقد قال ـ علي رضى الله عنه ـ: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟[1].

تكليم الناس بلسانهم:

ومن الحكمة: أن تكلم الناس بلسانهم، ليفهموا عنك، ويتجاوبوا معك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤) وليس معنى الآية مجرد أن يكلم الصينيين باللغة الصينية، والروس باللغة الروسية فقط، بل معناها الأعمق: أن يكلم الخواص بلسان الخواص، والعوام بلسان العوام، ويكلم الناس فى الشرق بلسان أهل الشرق، وفى الغرب بلسان أهل الغرب، ويكلم الناس فى القرن الحادى والعشرين بلسانهم لا بلسان قرون مضت.

أخذ الناس بالرفق:

ومن الحكمة: أن نأخذ الناس بالرفق فيما نأمرهم به وما ننهاهم عنه، وأن نهيئ أنفسهم لتلقى الأمر والنهى قبل توجيهه إليهم، وأن نأخذ بالمنهج النبوى الذى أمر به الأمة فى الدعوة والتعليم، حين قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[2].

ولا تكلف الناس ما لا يطيقون، حتى لا يردوا أمرك، ويقولوا: سمعنا وعصينا، وقد قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[3].

---

(١) رواه البخارى معلقا فى كتاب العلم من صحيحه.

(٢) متفق عليه عن أنس. كما فى اللؤلؤ والمرجان (١١٣١).

(٣) متفق عليه عن أبى هريرة. اللؤلؤ والمرجان (٨٤٦).

المحافظة على مراتب الأعمال ونسبها الشرعية:

ومن دلائل الحكمة التى ينبغى أن يحرص عليها الخطاب الدينى الإسلامى المعاصر: المحافظة على مراتب الأعمال وقيمها ونسبها الشرعية، وقد ناقشت هذه القضية من قديم فى كتابى (الصحوة بين الجحود والتطرف) فقد رأيت من الخلل الواقع فى فهم كثير من فصائل الصحوة الإسلامية، والجماعات الدينية، وكثير من الدعاة والوعاظ والخطباء الدينيين: أنهم أخلوا بالنسب الشرعية بين الأعمال بعضها وبعض. فكبروا الأمور الصغيرة، وصغروا الأمور الكبيرة، وعظموا الأمر الهين، وهوّنوا الأمر الخطير، وقدموا ما حقه التأخير، وأخروا ما حقه التقديم.

فمن المعلوم أن الشرع الإسلامى قد أعطى لكل عمل من الأعمال (تسعيرة) تحدد قيمته بالمعيار الشرعى، فالمأمورات منها: أركان وغير أركان، وغير الأركان منها واجبات ومنها سنن، والمنهيات منها: ما هو من الكبائر وما هو من الصغائر، والصغائر منها ما هو محرم بيقين، ومنها ما اختلف فيه، وبقى فى مرتبة الشبهات، ومنها: المكروه تحريما، والمكروه تنزيها.

فلا يجوز أن نذيب الحواجز بين هذه الأمور، وننظر إلى السنة نظرتنا إلى الفرض، أو ننظر إلى الصغيرة نظرتنا إلى الكبيرة، أو ننظر إلى المختلف فيه نظرتنا إلى المتفق عليه. فمن الخلل الخطير: أن نجعل بعض الأمور الأساسية هامشية، والهامشية أساسية.

أجل، لا يجوز أن نضخم بعض الأشياء ونعطيها أكبر من حجمها، ولا يجوز أن نبالغ فى تقديم بعض الأشياء أو إعطائها أوسع من مساحتها، فهذا سيكون قطعا على حساب غيرها، فمن الحكم المأثورة والتى ثبت صدقها: ما رأيت إسرافا إلا بجانبه حق مضيع.

لقد رأيت بعض الدعاة والخطباء الدينيين يسرفون فى بعض الأمور وعرضها على الجمهور، وليس لها فى المصادر الإسلامية هذا الحجم، فبعضهم: ألقى أكثر من عشر خطب فى (الجن) وعلاقته بالإنسان، ومس الجن، وركوب الجن الإنسان، إلى آخر ما هو معروف فى هذا الجانب.

وبعضهم ألقى (تسع محاضرات) فى تحريم حلق اللحية، كأنها من فرائض الدين، أو أركان الإسلام.

وبعضهم ألقى مجموعة خطب فى فرضية (لبس النقاب) وتحريم كشف الوجه، واعتبار الوجه عورة، وحشد من الأقوال والنصوص ما يؤيد وجهة نظره، مغفلا رأى الجمهور الذى يرى أن الوجه والكفين ليسا بعورة.

وبعض الوعاظ ألقى أكثر من خطبة فى (عذاب القبر) وذكر من الأحاديث الواهية والموضوعة ما يدخل الرعب فى القلوب، من حيات كالأفيال، وعقارب كالبغال.

والعجيب: أن هذه الخطب تحوّل إلى أشرطة (كاسيت) تسجل وتذاع وتباع للعامة، الذين تستهويهم المبالغات والتهاويل.

وقد حكى لى أحد الآباء: أن ابنته وعمرها عشر سنوات تستيقظ من الليل، وهى تصرخ مرعوبة، فلما سألته: هل هناك حادث وقع لها، أو شىء ما أدى إلى ذلك؟ قال: إن هذا أصبح يصيبها ويتكرر عليها، بعد أن سمعت شريطا فى عذاب القبر لأحد الوعاظ، يتضمن تهويلات تزرع الخوف المرضىّ فى النفوس.

ولقد ذكرت فى كتابى (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) معيارا لمدى الاهتمام بالأشياء والأفكار والأعمال، وهو: أن نهتم بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها، فما أولاه القرآن عناية، وفسح له المجال فى سوره وآياته وكرره، وأكدة بصورة وأخرى، فهذا دليل على أهميته وضرورته فى الدين، ويجب أعطاؤه من المساحة والعناية ما يليق به.

وما أولاه القرآن عناية أقل - كأن لم يذكره إلا مرة أو مرتين - فيجب أن يعطى من الاهتمام مثل ذلك.

وما أهمله القرآن تماما ولم يكن له ذكر فينبغى ألا نعيره اهتماما، ما لم توجد عوامل أخرى تقتضى التنويه به، لسبب وآخر، فتقدر بقدرها.

هذا وقد أصدرت كتابا مستقلا، يعالج هذه القضية من جذورها، ويؤصلها تأصيلا شرعيا موثقا بالأدلة من نصوص الشرع ومقاصده، سميته (فقه

الأولويات). وينبغى على الدعاة والمتقدّمين للخطاب الدينى أن يقرءوه ويتدارسوه.

من الحكمة إذن: أن نحسن ترتيب ما نأمر به، وما ننهى عنه، بحيث يأتى كل شيء فى موضعه، وفى أوانه، وفى مرتبته.

ليس من الحكمة: أن نكلم الناس فى إحدى الفرعيات، وهم يخالفون فى إثبات الأصول نفسها، كأن تدعوهم إلى صدقة التطوع، وقد منعوا ركن الزكاة، أو إلى صلاة الضحى، وقد ضيعوا صلاة الفريضة. أو تكلمهم فى الأوامر والنواهى قبل أن تثبت العقيدة أولا. روى البخارى وغيره عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله، (وفى رواية: شهادة أن لا إله إلا الله . . . .) فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلهم، فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. . . الحديث»[1].

فلم يعرض عليهم فرض الصلاة إلا بعد أن يعرفوا الله.

وهذا من الحكمة: أن نثبت الأصول ثم ندعو إلى الفروع. وقديما قال أسلافنا: ما حرمنا الوصول إلا بتضييعنا الأصول.

ومن مجانبة الحكمة: التشديد فى النوافل، وقد أهمل الناس الفرائض. ومن قواعدنا العلمية الموروثة: إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة. ومن حكم السلف: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

ومن ذلك: الاشتغال بالمختلف فيه، وقد ضيع الناس المتفق عليه.

مثل الانشغال بتغطية وجه المرأة بالنقاب، وعدم الاكتفاء بالخمار (المعبر عنه فى عصرنا بـ«الحجاب») وتأثيم المسلمة المختمرة، فى حين أن المعركة الآن لم تعد معركة كشف الوجوه، بل كشف الرءوس والنحور والصدور والذراعين والساقين،

---

(١) البخارى مع الفتح الحديث (١٤٥٨) طبعة السلفية. وقد رواه مسلم أيضا.

وما هو أكثر من ذلك. وشاع لبس ما يسمى (المينى جب) و(الميكرو جب) ونحوها. ورأينا الكاسيات العاريات المميلات المائلات.

وأذكر أنى تكلمت فى هذه القضية مع علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، فوافقنى على الاكتفاء من المسلمة فى عصرنا بالخمار، على أن تترك البلاد التى التزمت بالنقاب على التزامها.

ولقد أنكر بعض الدعاة على شيخنا الغزالى رحمه الله: تقسيمه تعاليم الدين إلى قشور ولباب وقال: هل فى دين الله قشور؟

وقلت لهؤلاء: هل ترون أن تعاليم الدين فى مرتبة واحدة؟ إن هذا ينافي محكمات القرآن والسنة، ففي القرآن يقول تعالى: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ١٩). وفى السنة نجد الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، اعلاها (لا إله إلا الله). وإدناها: اماطة الأذى من الطريق». فهناك أعلى وأدنى. والقائل: هل فى دين الله قشور؟ يرد عليه، بأن عالم الخلْق فيه قشور؛ وكذلك عالم الأمر فيه قشور، والقشور لها فائدتها وحكمتها فى العالمين. وقد ذم الله تعالى اليهود بأنهم تمسكوا بالقشور وتركوا اللباب، كما فى آية ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾ (البقرة: ١٧٧).

رعاية سنة التدرج:

ومن الحكمة المطلوبة: أن نأخذ الناس بالتدرج، فالتدرج سنة كونية، كما أنه سنة شرعية. أما أنه سنة كونية، فهذا ما نراه فى خلق الإنسان، حيث بدأ نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاما مكسوة لحما، ثم ينشئه الله خلقا آخر. ثم يخرج إلى الدنيا وليدا، فرضيعا، ففطيما، فصبيا، فيافعا، فشابا، فكهلا، وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ﴾ (نوح: ١٤).

وهكذا نرى خلق النبات، حيث يبدأ النبات بذرة، فينتقل من طور إلى طور حتى يصبح شجرة مثمرة.

وهو سنة شرعية، فإن الله تبارك وتعالى أمر رسوله محمدا صلى الله عليه

وسلم أن يرسى العقائد وأصول الأخلاق أولا ، كما نرى ذلك واضحا فى القرآن المكى ، ثم بدأ بأخذه بالجانب العملى ، متدرجا بهم شيئا فشيئا ، بادئا بإقامة الصلوات ، التى فرضت قبل الهجرة ، ثم بإيتاء الزكاة وصوم رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، ثم بعد ذلك فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا .

وكذلك بدأ بتحريم بعض المحرمات التى تعتبر من الرذائل الإنسانية المتفق عليها ، وأنها من أسباب الفساد والاضطراب فى الحياة الإنسانية ، مثل قتل النفس وفاحشة الزنى ، وقتل الأولاد من إملاق واقع أو خشية إملاق متوقع ، وأكل مال اليتيم ، ونقض العهد ، والمشى فى الأرض مرحا ، ونحو ذلك مما هو أقرب إلى الجانب الأخلاقى منه إلى الجانب التشريعى .

ولكنى أرى بعض الإخوة الدعاة لا يراعون التدرج قط فيمن يدعونهم ، فبعد أن سقطت الشيوعية ، فى عدد من الأقطار الإسلامية ، مثل البوسنة والهرسك وكوسوفا ، وقد ظلت هذه البلاد ـ وأهلها مسلمون ـ نحو خمسين سنة ، معزولين عن الإسلام علما وثقافة وسلوكا ، فهم يجهلون (ألف باء) الإسلام .

فكانوا فى حاجة إلى أن نأخذهم بالمنهج التدرجى الحكيم . فنبدأ بما اتفق عليه المسلمون لا بما اختلفوا فيه ، من العقائد والأحكام .

ولكن بعض الإخوة ـ أصلحهم الله ـ لم يراعوا ذلك ، فبدءوا بشن حملة على عقائد الأشاعرة والماتريدية ، الذين يدين بمذهبهم جمهور المسلمين فى المشارق والمغارب ، وتقوم المدارس والجامعات الدينية فى أنحاء العالم الإسلامى على تدريسه .

هذا مع أن معركتنا اليوم ليست مع من يؤمن بالله وبلقائه وحسابه ، ولكنه يؤول (يد الله) بأنها القدرة أو يؤول (وسع كرسيه السماوات والأرض) بأنه كناية عن سعة ملكه ، وعظمة سلطانه .

إن معركتنا الحقيقية هى مع الملاحدة الذين يجحدون وجود الله بالكلية ، ويقولون : لا إله ، والحياة مادة .

ثم بدأ هؤلاء الإخوة الدعاة الطيبون يطالبون الرجال بإطلاق اللحى ، وتقصير

الثياب، والنساء بلبس النقاب، بل بعضهم حمل معه عدة آلاف من (النُّقُب) ليلبسها النساء، اللائى بينهن وبين الخمار مراحل ومراحل.

ثم إذا كنا فى قلب ديار الإسلام والعرب، مبتلَيْن بحليقى اللحى، فهل نبدأ بدعوة هؤلاء المسلمين الأوروبيين الذين عاشوا نصف قرن تحت وطأة الشيوعية بما عجزنا عن تحقيقه فى قلب بلادنا العربية والإسلامية؟

وهل إطلاق اللحية من أركان الإسلام أو من فرائضه حتى نبدأ بها، ونعطيها هذه الأهمية فى الدين؟

كما نرى هؤلاء الدعاة الطيبين يبدءون بحملة على التصوف كله، واتهامه بأنه دخيل على الإسلام، لا يفرقون بين سنى ومبتدع، بين مستقيم ومنحرف.

هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: فى حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التى شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هى جوهر التصوف الصحيح الذى عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق. وبعبارة أخرى: التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (النحل: ١٢٨).

ومن الحكمة التى يجب أن يتحلى بها الدعاة فى دعوتهم: الرفق بالمدعوين والتلطف والرحمة بهم، والإشفاق عليهم. كما وصف الله رسوله بقوله: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩) هذا وهو رسول الله المؤيد بوحيه، ولكن البشر لا يطيقون الفظ الغليظ ولو كان هو الرسول الأمين.

أسلوب الموعظة الحسنة:

وإذا كانت الدعوة بالحكمة تخاطب العقول فتقنعها، فإن الدعوة بالموعظة الحسنة تخاطب القلوب والعواطف فتثيرها وتحركها. والإنسان ليس عقلا مجردا، إنه عقل وقلب معا، إنه عقل يدرك ويفكر، وقلب يحس ويشعر، وعلينا أن نخاطب الجانبين فيه معا: الجانب الذى يعى ويدرك ويحصل المعرفة، والجانب الذى ينفعل ويريد، ويحب ويكره، ويرغب ويرهب.

وكل الناس يحتاجون إلى أن يخاطبوا بالحكمة حينا، وبالموعظة حينا، وإن كان الخواص أكثر حاجة إلى الحكمة التى تخاطب عقولهم، وتحاكمهم إلى مسلّماتهم العقلية والعلمية. أما العوام فهم أشد حاجة إلى الموعظة الحسنة التى تخاطب عواطفهم، وتستثير دوافعهم إلى الخير.

ولم يصف القرآن الحكمة بشيء، لأن من أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، كما قال تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (البقرة: ٢٦٩) ولكنه وصف الموعظة المطلوبة بالحسن (والموعظة الحسنة). فليس المطلوب أى موعظة ولكن الموعظة الحسنة الجميلة الجيدة.

قد يكون حسنها: فى اختيار موضوعها المناسب للمخاطب.

وقد يكون حسنها: فى اختيار أسلوبها المؤثر فيه.

وقد يكون حسنها: أنها جاءت فى أوانها، وفى مكانها.

وقد يكون حسنها: أنها لمست وترا حساسا من المخاطبين، فأثرت فيهم.

وقد يكون حسنها: أنها قدرت ضعف الإنسان، فلم تؤنّبه حين يسقط، ولم تجرِّحه حين يعثر ويخطئ، فكل بنى آدم خطاء، والإنسان قد خلق من طين، والطين لا يخلو من الكدر. وقد قال ﷺ لمن لعن الصحابى الذى أدمن السُّكْر، وأتى به مرات إلى رسول الله شاربا للخمر، فقال أحدهم: لعنه الله! ما أكثر ما يؤتى به! فقال له: «لا تكن عونا للشيطان على أخيك»[1] وفى رواية: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»![2].

وقد يكون حسنها: أنها اتخذت المنهج الوسط فى الترغيب والترهيب، أو الترجية والتخويف، فلم تخوف الناس حتى ييأسوا من روح الله، فإنه ﴿ **لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (يوسف: ٨٧) ولم تبالغ فى الرجاء، حتى يأمن الناس من مكر الله، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وخير الأساليب فى ذلك: أسلوب القرآن، الذى يسوق الأنفس حينا بسوط

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٢) رواية أخرى للحديث السابق.

الخوف من الله، ويقودها حينا بزمام الرجاء فى رحمة الله، ليبقى المرء دائما ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويرجو رحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر: ٩).

الأسلوب القرآني يجمع بين الأمرين بتوازن وتناسق بديع ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٩٨) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الرعد: ٦) ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠).

ليس من الموعظة الحسنة: استخدام الترهيب الدائم، لتخويف العوام، من أهوال الموت، ومن عذاب القبر، ومن عذاب النار، والمبالغة فى ذلك، بإيراد الأحاديث الواهية أو الموضوعة، والقصص المخترعة، والإسرائيليات المكذوبة، والمنامات المزّورة، فإن هذا قد يؤثر فى نفوس بعض العوام، ولكن محصلته النهائية تنفير المثقفين والمستنيرين من الدين.

وليس من الموعظة الحسنة: المبالغة فى أسلوب الترغيب والترجية فى رحمة الله وعفوه، حتى يأمن الناس من مكر الله، ويجترئوا على معاصى الله.

وليس من الموعظة الحسنة: تهييج العامة وإثارة مشاعرهم، وإلهاب عواطفهم فى قضايا جزئية، قد يستفيد منها بعض الناس، ولكنها تضر الأمة فى مجموعها ضررا بالغا. فإن بعض الشباب الغض - نتيجة هذا التهييج وخصوصا إذا استمر - ينطلق كالصاروخ، ليفرغ ما امتلأ به قلبه من شحنة عارمة، فيقتل أو يدمر، لا يبالى بما يقع منه أو يقع عليه.

مخالفة كثير من الخطاب الدينى للمنهج القرآنى:

هذا المنهج القرآني الذى شرحناه: ليس واضحا تمام الوضوح لدى كثير من دعاة الخطاب الدينى فى عصرنا، الذين اضطربتَ فى أذهانهم المفاهيم، والتبست الحقائق بالأباطيل، وشوش معارفهم مقولات تلقوها من مصادر غير موثقة. لم تمحض ولم تناقش من أهل العلم والتحقيق، الذين يجمعون بين صحيح المنقول وصريح المعقول، ويوازن بين تراث السلف وثقافة العصر، ويوفقون بين ظواهر النصوص ومقاصدها، ويعرفون كيف يستلهمون الماضى، ويعايشون الحاضر، ويستشرقون المستقبل.

ونتيجة للقصور الملحوظ فى ثقافة الدعاة والخطباء، التى تحدثنا عنها فى كتابنا (ثقافة الداعية) الذى طالبنا فيه الداعية المسلم: أن يتسلح بأنواع ستة من الثقافات: الدينية والأدبية والتاريخية والإنسانية والعلمية والواقعية: نتيجة لهذا القصور الذى يصل أحيانا إلى درجة خطيرة: نجد خطابنا الدينى يقع فى أخطاء وتجاوزات كثيرة، يلاحظها الشخص العادى، ناهيك بالمثقف المستنير.

من يعيشون فى غير عصرهم:

منها: أن بعضهم يخاطب الأحياء بلسان الأموات، فهو لا يعيش فى عصره بالمرة، ولا يحس بما تمور به الدنيا من حوله. ثقافته كلها قديمة، وعالمه كله قديم، والمشكلات التى يتحدث عنها مشكلات أزمنه مضت، والمفردات التى يتحدث بها قد هجرت، فهو محسوب على القرن الخامس عشر الهجرى، أو القرن الحادى والعشرين الميلادى، وهو ليس من أهله.

كما رأينا بعضهم يتحدث فى إحدى خطب الجمعة عن مشكلة (خلق القرآن) ويصب جام غضبه على المعتزلة الذين أثاروا هذه الفتنة، وامتحنوا فيها أئمة المسلمين مثل الإمام أحمد بن حنبل، وساموهم سوء العذاب.. إلخ. وهذه فتنة انتهت منذ قرون بدوافعها وملابساتها الدينية والفكرية والسياسية، ولم تعد مما يهمنا ويشغلنا فى حاضرنا. وليست مشكلتا اليوم مع من يقول بـ (خلق القرآن) بل مع من ينكر (إلهيته) القرآن، وربانية مصدره، أو مع من يؤمن بذلك، ولكنه لا يرضى به (مرجعية معصومة) لشرائعه وقوانينه وانظمته ومفاهيمه وتقاليده.

٤ـ حوار المخالفين بالتى هى أحسن:

ومن معالم المنهج الذى رسمه القرآن للدعوة إلى الله: الجدال بالتى هى أحسن. والأصل فى الجدال أن يكون مع المخالفين.

ومن الملاحظ على التعبير القرآنى المعجز فى الآية: أنه اكتفى فى الموعظة بأن تكون (حسنة)، ولكنه لم يكتف فى الجدال إلا أن يكون بالتى هى (أحسن). لأن الموعظة ـ غالبا ـ تكون مع الموافقين، أما الجدال فيكون ـ عادة ـ مع المخالفين، لهذا

وجب أن يكون بالتى هى أحسن . على معنى أنه لو كانت هناك للجدال والحوار طريقتان : طريقة حسنة وجيدة ، وطريقة أحسن منها وأجود ، كان المسلم الداعية مأمورا أن يحاور مخالفيه بالطريقة التى هى أحسن وأجود .

ومن ذلك : أن يختار أرق العبارات ، وألطف الأساليب فى جداله مع المخالفين ، حتى يؤنسه ، ويقربه منه ، ولا يوغر صدره ، أو يثير عصبيته . وقد ضرب لنا القرآن أمثلة رائعة وبارزة فى هذا المجال فى حسن مجادلة المخالفين .

ومن ذلك قوله تعالى فى جدال المشركين : ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (سبأ : ٢٤) .

ففى هذا الأسلوب الرقيق الرفيق من إرخاء العنان ، وتسكين الخصم ، وإرضاء غروره : ما يهيئ نفسه للاقتناع أو الاقتراب منه إلى حد كبير . فهو يقول : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ يعنى : أن أحد الفريقين منا على ضلال : نحن أو أنتم ، ولم يقل لهم : أنتم فى ضلال مبين .

ثم قال : ﴿ **قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سبأ : ٢٥) وكان مقتضى المقابلة أن يقول : (ولا نسأل عما تجرمون) ولكن لم يشأ أن يجْابههم بنسبة الإجرام إليهم ، إيناسا وتقريبا لهم وتأليفا لقلوبهم .

ومن الجدال بالتى هى أحسن : التركيز على الجوامع المشتركة بين المتحاورين ، لا على نقاط الاختلاف والتمايز بينهما ، فإن وجود أرض مشتركة بين الطرفين يساعد على جدية الحوار وجدواه ، وإمكان الانتفاع به فيما هو متفق عليه بين الأطراف المتجادلة .

وهذا ما يشير إليه القرآن فى الجدال مع أهل الكتاب ، حيث يقول تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ـ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ـ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت : ٤٦) فهو هنا يركز على العقائد التى تقرب المسلمين منهم : وهى : أن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل الله من كتاب ، كما يؤمنون بكل من بعث الله من رسول ، وكذلك يؤمن الجميع بإله واحد . ومن هذه النقطة ينطلق اللقاء لمواجهة الملاحدة والجاحدين

الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها، ولا يعتقدون أن للكون إلها، ولا أن فى الإنسان روحا، ولا أن وراء الدنيا آخرة.

ومن الجدال بالتى هى أحسن: ما ذكره صاحب (الظلال) رحمه الله، وهو أن يكون حوارا رقيقا رفيقا بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها، والاهتداء إليها. فى سبيل الله، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر!

ولكى يطامن الداعية من حماسته واندفاعاته يشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للجاجة فى الجدل، ، إنما هو البيان، والأمر بعد ذلك لله)[1].

الأدعية الاستفزازية:

ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة ولا من الجدال بالتى هى أحسن: اتخاذ الأدعية الاستفزازية فى صلوات الجمع وفى قنوت النوازل وغيرها.

فبعض الوعاظ والخطباء يدعون الله تعالى: أن يهلك اليهود والنصارى جميعا، وأن ييتم أطفالهم، ويرمل نساءهم، ويجعلهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين!

ومن المعلوم: أن فى كثير من بلاد المسلمين توجد أقليات من النصارى - وربما من اليهود - وهم مواطنون يشاركون المسلمين فى المواطنة، وليس من اللائق أن ندعو

---

(١) انظر: (فى ظلال القرآن) لسيد قطب ص ٢٢٠٢ طبعة دار الشروق.

بدعوة تشمل هؤلاء بالهلاك والدمار. إنما اللائق والمناسب: أن ندعو على اليهود الغاصبين المعتدين، وأن ندعو على الصليبيين الحاقدين الظالمين، لا على كل اليهود والنصارى.

على أنى لم أجد فى أدعية القرآن، ولا فى أدعية الرسول، ولا فى أدعية الصحابة: مثل هذه الدعوات المثيرة: تيتيم أطفالهم، وترميل نسائهم، وأمثالها. بل أدعية القرآن مثل: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠). ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (يونس: ٨٥، ٨٦).

ومن أدعية الرسول: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب: اهزمهم وانصرنا عليهم»[1].

«اللهم إنا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»[2].

وقد قال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥) أى لا يحب الذين يعتدون ويتجاوزون فى دعائهم.

وبعض الخطباء يدعون الله تعالى بإبادة الكفار جميعا، ولا يبقى منهم باقية، قائلين: (اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا)[3].

وهذا دعاء دعا به أحد الصحابة على من عذبوه وإخوانه وعرضوهم للقتل والصلب، فهو دعاء خاص، فجاء هؤلاء الخطباء، وجعلوه عاما، واستخدام الخاص فى موضع العام من أسباب الزيغ وانحراف التفكير.

ولا خلاف أن الدعاء بإهلاك الكفار جميعا (أن يقتلهم بددا ولا يبقى منهم أحدا) ينافى ما أخبر به القرآن أن كفر الكافرين واقع بمشيئة الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ (يونس: ٩٩) فمن ذا الذى يعارض مشيئة رب العالمين؟

---

(٢) رواه البخارى (٢٩٣٣) ومسلم (١٧٤٢) عن عبدالله بن أبى أوفى.

(٣) رواه أبو داود (١٥٣٧) عن أبى موسى الأشعرى.

(٣) رواه البخارى فى مواضع عدة من صحيحه عن أبى هريرة (٣٠٤٥)، ٣٨٨٩، ٤٠٨٦، ٧٤٠٢) وانظر: فتح البارى (٩/ ٣٥٢) طبعة دار أبى حيان.

(غير المسلمين) بدل (الكفار):

ومن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن الجدال بالتى هى أحسن، المطالب به المسلمون، وخصوصا فى عصر العولمة: ألا نخاطب المخالفين لنا باسم الكفار، وإن كنا نعتقد كفرهم. ولا سيما مخالفينا من أهل الكتاب.

وذلك لأمرين:

أولهما: أن كلمة (كفار) لها عدة معان، بعضها غير مراد لنا يقينا. من هذه المعانى: الجحود بالله تعالى وبرسله وبالدار الآخرة، كما هو شأن الماديين الذين لا يؤمنون بأى شىء وراء الحس، فلا يؤمنون بإله، ولا بنبوة، ولا بآخرة.

ونحن إذا تحدثنا عن أهل الكتاب لا نريد وصفهم بالكفر بهذا المعنى، إنما نقصد أنهم كفار برسالة محمد وبدينه. وهذا حق، كما أنهم يعتقدون أننا كفار بدينهم الذى هم عليه الآن، وهذا حق أيضا.

والثانى: أن القرآن علمنا ألا نخاطب الناس - وإن كانوا كفارا - باسم الكفر، فخطاب الناس - غير المؤمنين - فى القرآن، إما أن يكون بهذا النداء (يا أيها الناس) أو (يا بنى آدم) أو (يا عبادى) أو (يا أهل الكتاب).

ولم يجئ فى القرآن خطاب بعنوان الكفر إلا فى آيتين: إحداهما خطاب لهم يوم القيامة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (التحريم: ٧).

والأخرى قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ (الكافرون: ١-٦). فكان هذا خطابا للمشركين الوثنيين الذين كانوا يساومون الرسول الكريم على أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأرادت السورة قطع هذه المحاولات بأسلوب صارم، وبخطاب حاسم، لا يبقى مجالا لهذه المماحكات، فأُمر الرسول أن يخاطبهم بهذه الصورة القوية، بما فيها من تكرار وتوكيد، ومع هذا ختمت السورة بهذه الآية التى تفتح بابا للسماحة مع الآخر، حين قالت: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾.

ولهذا آثرت من قديم أن أعبر عن مخالفينا من أهل الأديان الأخرى بعبارة (غير

المسلمين). وأصدرت من زمن طويل كتابي (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي). وقد طبع مرات ومرات، وترجم إلى عدة لغات.

وقد قلت ذلك في برنامجي الأسبوعي في قناة الجزيرة (الشريعة والحياة) فاتصل أحد الإخوة، وقال: إن التعبير عن الكفار بـ (غير المسلمين) يعتبر تنازلا منا لحساب أهل الكفر، وهو من دلائل هزيمتنا النفسية أمام مخالفينا.

ولا أدري لماذا يعتبر الخطاب الرفيق، والكلام الرقيق: تنازلا منا؟ وعن أي شيء تنازلنا؟ إننا لم نتنازل عن الاعتقاد بأن ديننا هو الحق، وأن كل من لم يؤمن برسالة محمد فهو كافر. وهذا شأن كل ذي دين: أن يعتقد أن دينه هو الحق، وأن غيره على الباطل، ولا يتم إيمان ديني إلا بهذا.

ولكن هذا شيء، ومخاطبة المخالفين بما يؤذيهم أو يجرح مشاعرهم، أو ينفرهم: شيء آخر. وما طلب الله ذلك منا. بل أمرنا بعكس ذلك تماما، فقال تعالى لرسوله: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ (الإسراء: ٥٣).

فنحن - المسلمين - مأمورون من ربنا: أن نقول الكلمة التي هي أحسن لمن نخاطبه أو ندعوه أو نحاوره. وليس من التي هي أحسن أن نجابهه فنقول له: أيها الكافر. بل ينبغي أن نخاطب فيه إنسانيته وفطرته، ولا نتبع نزغات الشيطان، - عدو بني الإنسان المبين - الذي يريد أن ينزغ بينهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء.

وقال بعض المفسرين: المعنى: وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد: أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (الأنعام: ١٠٨). وقال الحسن: المعنى: إن يقول للكافر إذا تشطط (نحاذر وغلا): دال الله، برحمك لله![1].

وفي أهل الكتاب خاصة جاء نص يحدد جدالهم، ويحصره بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

---

(١) انظر تفسير القرطبي: (١٠/٢٧٧). وتفسير الفخر الرازي (٢٠/ ٢٢٨).

فلم يكتف هنا بأن يقول: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) بل كانت الصيغة: ولا تجادلوهم إلا بالتى هى أحسن. فأى صيغة أخرى - ولو كانت حسنة - فهى منهى عنها بحكم هذه الآية.

(مواطنون) بدل (أهل الذمة):

وهناك كلمات لم تعد مقبولة لدى إخواننا من الأقليات غير المسلمة مثل الأقباط فى مصر، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وهى مصطلح (أهل الذمة) مع أن مدلول هذا المصطلح مدلول إيجابى، لأنه يعنى: أن لهم ذمة الله ورسوله وجماعة المسلمين. وهذا مدلول له وقعه وتأثيره فى نفس المسلم، فإنه لا يقبل أن تُخفَر ذمة الله ورسوله بحال، ومن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ولكن إذا كان مواطنونا من غير المسلمين يتأذون من هذا الاصطلاح، فلا أجد مانعا من استخدام كلمة (المواطنة) و(المواطن) فإن الفقهاء متفقون على أن أهل الذمة من (أهل دار الإسلام) فهم من أهل الدار، وإن لم يكونوا من أهل الملة. و(أهل الدار) تعنى بالتعبير العصرى: مواطنين.

وحذف هذه الكلمة لا يتعارض مع شىء من أحكام شريعتنا، أو مقررات ديننا.

ولنا أسوة فى ذلك من عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا أن نستن بسنتهم، وأن نعض عليها بالنواجذ، ولا سيما سنة الشيخين أبى بكر وعمر.

أسوتنا ما صنعه الفاروق عمر - ووافقه الصحابة رضى الله عنهم - مع عرب بنى تغلب، وكانوا نصارى منذ عهد الجاهلية. وقد طلبوا إلى عمر أن يأخذ ما يأخذه منهم من التزامات مالية، باسم الزكاة أو الصدقة، ولو كان مضاعفا، ولا يأخذه باسم الجزية، وقالوا: إننا قوم عرب، ونأنف من كلمة جزية.

تردد عمر فى أول الأمر أن يجيبهم إلى طلبهم، ثم نصحه بعض مشيريه أن يستجيب لهم، قائلا: إنهم قوم لهم بأس وقوة، ونخشى أن يلحقوا بالروم، ففكر عمر فى الأمر، ورأى أن ينفذ لهم ما أرادوا، وقال: سموها ما شئتم، وقال لمن حوله: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى وأبوا الاسم!

وكان هذا من الفاروق تقريرا لقاعدة مهمة: أن العبرة ليست للأسماء والعناوين، ولكن العبرة للمسميات والمضامين.

هذا مع أن كلمة (جزية) ذكرت في القرآن، ولكن المقصود هو معناها لا لفظها. ومعناها: أن يدفعوا ضريبة يعلنون بها إذعانهم لسلطان الدولة المسلمة، وقبولهم جريان أحكام الإسلام - غير الدينية - عليهم.

التعبير بالأخوة عن العلاقات الإنسانية:

ومن التعبيرات المطلوبة في عصر العولمة: التعبير بالإخوّة عن العلاقة بين البشر كافة، والمراد بها (الإخوة الإنسانية) العامة، على اعتبار أن البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما قرره حديث نبوى شريف، خاطب به رسول الإسلام الجموع الحاشدة في حجة الوداع، فكان مما قاله في هذا المقام:

«أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

وهذا الحديث أو الخطاب - وأن كان المخاطبون به في الأصل هم المسلمين - يتضمن مفهوما عاما، يصلح لخطاب الناس جميعا، فإن رب الجميع واحد، وأباهم واحد، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى. وهو مستمد من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات: ١٣).

كما أن هذا الحديث يؤكد قول الله تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ (النساء: ١). وما أجدر كلمة (الأرحام) في هذه الآية: أن تشمل - فيما تشمل - الأرحام الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض. وفى ذلك يقول شاعر مسلم:

إذا كان أصلى من تراب فكلها   بلادى، وكل العالمين أقاربى!

وأولى من ذلك عن التعبير عن العلاقة بين المسلمين ومواطنيهم من غير المسلمين بـ (الأخوة).

والمراد بها : الأخوة الوطنية أو القومية . فليست (الأخوة الدينية) هى الأخوة الوحيدة التى تصل بين البشر . إنها لا شك أعمق ألوان الأخوة وأوثقها رباطا .

ولكن لا نزاع أن هناك أنواعا أخرى من الأخوة ، مثل الأخوة بين أبناء القبيلة الواحدة وإن اتسعت ، أو أبناء الشعب الواحد وإن تكاثر وانتشر ، وبين أبناء الجنس الواحد أو القوم الواحد .

ودليلنا على ذلك : ما جاء فى القرآن الكريم من حديث القرآن عن الأنبياء وصلتهم بأقوامهم المكذبين لهم ، واعتبار القرآن كل نبى من هؤلاء (أخا) لقومه ، وإن عصوه وكذبوه وكفروا برسالته .

اقرأ معى قول الله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** . . . ﴾ (الشعراء : ١٠٥ ، ١٠٧) .

فانظر كيف أثبت أخوة نوح لهم ، مع أنهم كذبوه ، لأنهم قومه ، وهو منهم ، فهى أخوة قومية لا شك فيها .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ (الشعراء : ١٢٣ ، ١٢٤) .

وقوله سبحانه ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ (الشعراء : ١٤١ ، ١٤٢) .

وقوله : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ (الشعراء : ١٦٠ ، ١٦١) .

ولم تخالف سورة الشعراء هذا التعبير إلا فى الحديث عن شعيب ، فقال تعالى : ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ** ﴾ (الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧) .

فلماذا غاير القرآن الأسلوب هنا ، وقال : (إذ قال لهم شعيب) ولم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب؟

السر فى ذلك : أن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة ، بل كان غريبا عنهم ، وإنما

كان من مدين، ولهذا قال فى سورة الأعراف، وفى سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ فدلتنا هذه الآيات بوضوح أن من الأخوة ما يبنى على غير الدين، وإنما يبنى على اعتبارات أخرى، ومنها: الاعتبار القومى أو الوطنى.

ومثل هذه التعبيرات تقرب الآخرين منا، وتزيل الفجوة بيننا وبينهم، وهذا ما يبطل كيد الأعداء المتربصين بنا، والذين يريدون أن يشعلوا فتيل الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، ليصطادوا فى الماء العكر، ويتخذوا من ذلك ذريعة للتدخل فى شؤوننا، والتسلط علينا، والتحكم فى رقابنا، وأولى بنا أن نرد كيدهم فى نحورهم بمثل هذه المواقف التى تجعل قوى الأمة كلها جبهة متراصة فى مواجهة مكرهم وعدوانهم.

أحفاد القردة والخنازير:

ومن الخطاب الذى لا يليق بالداعية المسلم: أن يصف اليهود بأنهم (أحفاد القردة والخنازير) بناء على أن القرآن قد ذكر أن الله تعالى مسخ طائفة منهم اعتدوا فى السبت، واستخفوا بحرمته، واحتالوا على ما حرم الله فيه، فقال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥) وهم الذين ذكر الله قصتهم مفصلة فى سورة الأعراف[١] وأشار إليها فى سورة المائدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: ٦٠).

وهذا الأسلوب فى الخطاب غير لائق ولا جائز، لعدة أسباب:

أولها: أن هذا القول غير صحيح، فالذين مسخوا قردة وخنازير، لم يكن لهم أولاد ولا أحفاد ولا نسل، بنص حديث رسولنا محمد ﷺ الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود: «إن الله تعالى لم يجعل لمسخ نسلا، ولا عقبا. وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»[٢] يشير الحديث الشريف إلى أن القردة والخنازير حيوانات كانت موجودة من قديم قبل حادث المسخ فى بنى إسرائيل.

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ...﴾ الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦.
(٢) وقد رواه الإمام أحمد أيضا، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٨٠٧).

ثانيها: أن هذا أسلوب استفزازى، والمسلم لا يستفز الناس ولا ينفرهم بخطابه، بل هو مأمور أن يتألف الناس، ويحبب الله ودينه ورسوله إليهم، ويبشرهم، ولا ينفرهم، كما جاء فى الحديث المتفق عليه عن أنس: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» ولم يستثن اليهود من هذا التوجيه النبوى العام.

ثالثها: أن هذا سبّ مكشوف، والمسلم - ناهيك بالداعية - ليس سبّابا ولا لعانا، وقد نهينا عن سب الإنسان والحيوان والطيور والحشرات والظواهر الطبيعية وغيرها، كما ورد فى عدة أحاديث. حتى إن القرآن نهانا أن نسب الأصنام، حتى لا يغضب لها عبادها، فيسبوا ربنا عز وجل انتقاما لها، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

رابعها: أن اليهود - أو بنى إسرائيل - كما جاء فيهم مسخ طائفة منهم قردة، جاءت آيات كثيرة تثنى عليهم، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ** ﴾ (الدخان: ٣٢، ٣٣) ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (المائدة: ٢٠).

فلماذا لا نذكر إلا الجانب السيىء فيهم؟

خامسها: أن الإنسان لا يؤاخذ - فى الإسلام - بذنب آبائه وأجداده، فكم من أب كافر، وابنه مؤمن، كإبراهيم عليه السلام، والصحابة بعضهم من أبناء مشركى الجاهلية، ولا يتحمل جيل وزر جيل أو أجيال سابقة، شردت عن الحق، وضلت السبيل، إلا إذا رضى عملهم، وتبناه ودافع عنه، فيبوء بإثمه.

ومن هنا لا تؤاخذ اليهود بذنب أجدادهم، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

تحريف الإسلام مرفوض:

هذا هو الخطاب الدينى الذى كنا ندعو إليه بالأمس. بل تبنينا الدعوة إليه منذ عشرات السنين، وهو الذى ندعو إليه اليوم المسلمين، وغير المسلمين، وهو الذى سندعو إليه غدا وبعد غد، لأنه الخطاب الذى تعلمناه من الإسلام نفسه، من هُدى الله فى كتابه، ومن هَدْى رسوله فى سنته.

هو الخطاب الذى دعونا إليه قبل عصر العولمة، وسندعو إليه بعد عصر العولمة.

أما إذا كان عصر العولمة يريد منا خطابا دينيا جديدا، نحرف فيه الإسلام عن حقيقته، أو نحرف الكلم عن مواضعه، بحيث نقدم لهم إسلاما على هواهم: إسلاما (مستأنسا) إسلاما كسير الجناح، منزوع السلاح، لا حول له ولا قوة، يؤمر فيطيع، ويقاد فينقاد، ويطلب من العلماء والدعاة والكتاب، أن يقدموه: عقيدة بلا شريعة، وعبادة بلا معاملة، وسلاما بلا جهاد، وزواجا بلا طلاق، وحقا بلا قوة، ومصحفا بلا سيف، ودعوة بلا دولة، واقتصادا بلا أخلاق، وسياسة بلا دين، فهذا إسلام لا نعرفه ولا يعرفنا.

وليس هو إسلام السنة والقرآن، ولا إسلام رسول الله والصحابة ومن تبعهم بإحسان من خير القرون.

إن كان المراد بتغيير الخطاب الدينى: تقديم الإسلام على أنه مجرد علاقة بين العبد وربه، وليس منهج حياة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة، وأن يتبنى شعار: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فهذا إسلام مزيف على المسلمين، ليس إسلام محمد ﷺ، ولا إسلام القرآن، ولا إسلام المسلمين، الذى يرفض تقسيم الحياة والإنسان بين الله وقيصر، ويقول: قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الأنعام: ١٦٢).

إن كان المراد بتغيير الخطاب الدينى: حذف الآيات التى تتحدث عن اليهود، وغدراتهم بالنبى محمد ﷺ وأصحابه، وانضمامهم إلى الوثنيين فى حربه، أو - على الأقل - غض الطرف عنها، وتجميدها، فلا تتلى فى إذاعة ولا تلفاز، ولا يتحدث عنها المتحدثون فى خطب ولا دروس ولا محاضرات، فهذا مرفوض من أمة الإسلام. فكتاب ربهم يجب أن يظل متلوا مذكورا، معلّما موجها، فهو النور المبين، والصراط المستقيم، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم.

إن كان المراد من تغيير الخطاب الدينى لدى المسلمين: حذف ركنية الزكاة من العبادات، وحذف تحريم الربا من المعاملات، وحذف الحدود من التشريع الجنائى،

وحذف الجهاد من فقه العلاقات الدولية، وحذف الغزوات من السيرة النبوية، وحذف خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وصلاح الدين الأيوبى، وسيف الدين قطز، وعمر المختار، وعز الدين القسام من تاريخ المسلمين، فلا ثم لا .

إن كان المراد بتغيير الخطاب الدينى : إهالة التراب على شعر أبى تمام فى فتح عمورية، أو شعر أبى الطيب فى انتصارات سيف الدولة على الروم، فلا ثم لا .

إن كان المراد بتغيير الخطاب الدينى : تمويث الصحوة الإسلامية، ووأد الدعوة الإسلامية، وإسكات الصوت الإسلامى أو إخراسه، وإعلاء الصوت العلمانى الدخيل على الأمة، الغريب عن عقائدها وقيمها ومفاهيمها وحياتها، فهذا ما لا يقبله مسلم آمن بقول ربه سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

إن كان المراد بتغيير الخطاب الدينى : أن نتسلخ الأمة من جلدها، وأن تبرأ من حضارتها وتاريخها، وأن تتنكر لعقيدتها وشريعتها، ولقرآنها وسنتها، وأن تعيش فى الحياة ذنبا، وقد جعلها الله رأسا، وأن تحيا تبعا لغيرها، تتبع سننه شبرا بشبر، وذراعا بذراع، لا يكتفى بأن يرسم لها سياستها، بل يخطط ليضع لها مناهج تفكيرها وثقافتها، ومناهج تعليمها وتربيتها، حتى مناهج التعليم الدينى نفسه، يرسمه لها، أو يأمرها أن ترسمه وفق رغباته ومصالحه، لتمسى فى ظل هذه الفلسفة ـ أمة لاهوية لها، ولا رسالة تتميز بها، ولا تاريخ تعتز به، ولا أهداف كبرى نسعى إلى تحقيقها، ولا مخلب لها ولا ناب تدافع به عن نفسها ـ أن كان هذا هو الخطاب الدينى المنشود، فلا أهلا به ولا سهلا، ولا مرحبا بخطاب يجعل الأمة مسخا مشوها، فتخسر دينها ودنياها، ونفقد ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وتستوجب سخط الله، واحتقار الناس، وخسران النفس، ألا ذلك هو الخسران المبين .

خصائص الخطاب الدينى المنشود فى عصرنا

خصائص خطابنا الإسلامى
فى عصر العولمة

إذا كان خطابنا الإسلامى ينبغى أن يراعى مكان المخاطبين أو المدعوين، وزمانهم وظروفهم، ويخاطب كل قوم بلسانهم ليبين لهم، ويجتهد فى إفهامهم، حتى يكون بلاغه لهم (بلاغا مبينا) كما هو شأن بلاغ الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾؟ (النحل : ٣٥).

فمن المهم أن يلاحظ هذا الخطاب فى عصر العولمة : طبيعة التقارب الذى جعل العالم كله قرية واحدة، وأصبح من خصائص هذا العصر سرعة انتقال الخطاب إلى القارات فى سرعة البرق، وأصبحت تتكلم من بلد صغير مثل قطر، فيسمعك العالم ويراك، كأنه يجلس إليك، وينصت بين يديك. لعلك لو كنت تُحدِّث قديما فى جامع من الجوامع، ربما لم يرك بعض المصلين، وربما لم يصل صوتك إلى بعضهم.

ويلزم أهل الخطاب الإسلامى، أو الدعوة الإسلامية : أن يتحرَّوْا فى خطابهم، ويتأنَّوْا فى دعوتهم، ولا يلقوا الكلام على عواهنه، فقد غدا العالم كله يسمعهم، ويحلل أحاديثهم.

ينبغى أن يجمع هذا الخطاب الإسلامى المعاصر : عدة خصائص أساسية، تجعله قادرا على الوصول إلى الناس، بحيث يقنع عقولهم بالحجة، ويستميل قلوبهم بالموعظة، ولا يحيد عن الحكمة، ولا عن الحوار بالتى هى أحسن.

من خصائص هذا الخطاب أنه :

١ ـ يؤمن بالله ولا يكفر بالإنسان.

٢ ـ يؤمن بالوحى ولا يغيب العقل .

٣ ـ يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادية .

٤ ـ يعنى بالعبادات الشعائرية ولا يغفل القيم الأخلاقية .

٥ ـ يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة وإلى إشاعة التسامح والحب .

٦ ـ يغرى بالمثال ، ولا يتجاهل الواقع .

٧ ـ يدعو إلى الجد والاستقامة ولا ينسى اللهو والترويح .

٨ ـ يتبنى العالمية ولا يغفل المحلية .

٩ ـ يحرص على المعاصرة ويتمسك بالأصالة .

١٠ ـ يستشرف المستقبل ، ولا يتنكر للماضى .

١١ ـ يتبنى التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة .

١٢ ـ يدعو إلى الاجتهاد ولا يتعدى الثوابت .

١٣ ـ ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع .

١٤ ـ ينصف المرأة ولا يجور على الرجل .

١٥ ـ يصون حقوق الأقلية ولا يحيف على الأكثرية .

١ـ يؤمن بالله ولا يكفر بالإنسان

من خصائص الخطاب الإسلامي: أنه يدعو إلى الإيمان بالله جل جلاله، ولكنه لا يكفر بالإنسان، ولا يزدرى الإنسان، ولا يُغفل شأن الإنسان.

إنه يدعو إلى الإيمان بالله الخالق المدبر لهذا الكون، الذى أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك: ٣)، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧) الله الواحد الأحد، الذى لا شريك له، ولا ند له، ولا ضد له، ولا مثل له ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١ ـ ٣) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٤٢، ٤٣).

الله الذى دل كل ما فى هذا الكون على وجوده وقدرته، وعلى إبداعه وحكمته، فكل شيء فى هذا الكون بمقدار، وكل شيء بميزان وحسبان، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

لم يخلق شيئا عبثا، ولم يفعل شيئا اعتباطا، وإنما خلق ما خلق، وقدر ما قدر لحكمة بالغة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، ولم تخف على أولى الألباب من عباده الذين أحسنوا قراءة آياته في الكون، حين تفكروا فى خلق السماوات والأرض، وقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١).

الله العليم الخبير، الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسع علمه كل شيء ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٣).

كما وسعت رحمته كل شيء، فهو الرحمن الرحيم، الذى سبقت رحمته غضبه، وسبق فضله عدله، وسبق حلمه عقوبته، يثيب على الحسنة بعشر أمثالها أو يزيد، ويعاقب على السيئة بمثلها أو يعفو، من أقبل عليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، يغفر الذنوب ولا يبالى، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، يقول سبحانه في جواب موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٥٦) وتقول ملائكته الذين يحملون عرشه ويسبحون بحمده ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر: ٧).

هذا الخالق المدبر العظيم، الذى يحيى ويميت، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، هو الذى يستحق - وحده - أن يعبد وحده لا شريك له، ومعنى (يعبد) أى يخص بغاية التعظيم، وغاية الحب، فهذه هي حقيقة العبادة، ولهذا علمنا الله أن نتجه إليه فى صلاتنا قائلين: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٥).

فلا يجوز أن تطأطئ الظهور إلا له راكعة، ولا تتعفر الجباه إلا له ساجدة، ولا أن تخشع القلوب إلا له راجية خائفة ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (الحديد: ١٦).

هذا الإله العظيم يجب أن ندين له وحده بالتوحيد، وأن نتحرر من العبادة لغيره: من عبادة الأشياء فى الأرض أو فى السماء، ومن عبادة الأشخاص، ولو كانوا جنا أو ملائكة أو أولياء أو أنبياء، ومن عبادة الذات أو عبادة الهوى، وإخلاص العبادة لله وحده ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الزمر: ١١، ١٢)، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

بعث النبى ﷺ إلى قيصر وغيره من ملوك أهل الكتاب وأمرائهم، يدعوهم

إلى الإيمان به وبدينه الجديد، الذى جاء يحرر الإنسان من العبودية لكل ما سوى الله: عبودية الإنسان للإنسان، وعبودية الإنسان للأشياء، ويختم رسائله إليهم بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

هذه الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتقواه: تثمر دعوة تكملها، وهى: الإيمان بالإنسان، الذى خلقه الله فى أحسن تقويم، وكرمه أعظم تكريم: جعله فى الأرض خليفة، وسخر له ما فى الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، وعلمه البيان، وهداه السبيل، وعلمه ما لم يعلم، وخلق أبا هذا النوع ـ وهو آدم ـ بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وفضله بالعلم عليهم، وطرد إبليس من بينهم حين تمرد على السجود له.

نقرأ ذلك فى القرآن بوضوح: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١ ـ ٤)، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣).

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

إن الإسلام رفع الإنسان مكانا عليا، حين كلفه القيام بخلافة الله فى الأرض، واستعمره فيها، وحمله أمانة عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وهى أمانة المسئولية وحمل التكاليف.

لا ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مجرد (حيوان تطور) من مراحل دنيا حتى

انتهى إلى هذه المرحلة. بل هو مخلوق خلقًا مستقلا، ليقوم برسالته فى الأرض، ليعمرها، ويؤدى حق الله فيها، ويقوم بوظيفة الخلافة لله. وقد هيأه الله تعالى بتكوينه المزدوج: الطينى والروحى ليقوم بهذا الدور، الذى لا يقدر عليه الملائكة. وسر ذلك يكمن فى هذه (النفخة من روح الله) التى أودعها الله فيه، بجوار قبضة التراب أو الطين الذى تكون منها جسده الذى يمثل الغلاف الظاهرى للإنسان.

ليس الإنسان (حيوانا) بل سخر الله له الحيوانات، وكل الكائنات الحية على الأرض فى اليابسة أو فى الماء. كما أنه ليس (إلها) كبعض الفلسفات الغربية التى (تؤله) الإنسان، وترفعه فوق قدره، وتتجاوز به حده.

وما أنجزه الإنسان على الأرض من علم وتكنولوجيا، وثورات غيرت وجه البسيطة، ومنحت الإنسان من القدرات والإمكانات ما لم يكن يحلم به، هذا كله من فضل الله عليه، وبره به، كما قال تعالى فى أول وحيه على محمد: ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق: ٣ ـ ٥).

إن الإسلام ـ بتشريعاته القانونية ووصاياه الأخلاقية ـ يرعى فطرة الإنسان، وكرامة الإنسان، وحرمات الإنسان، وحرية الإنسان، وحقوق الإنسان[1].

إنه يرعى فطرة الإنسان فلا يصادرها، ولا يصادمها، ولا يعلن الحرب على دوافعها الطبيعية.

فلا يصادر مثلا غريزة الإنسان الجنسية، ولا يعتبرها رجسا من عمل الشيطان، بل يعترف بها، ويدعو إلى التسامى بها، والعمل على تصريفها والاستمتاع بها فى الحلال، ولا يرضى بكبتها ومصادرتها بصفة مطلقة. لهذا شرع الزواج، وقال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[2].

ويتحدث عن الجانب الجنسى فى العلاقة الزوجية ضمن أحكام الصيام فيقول: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ (البقرة: ١٨٧).

---

(١) راجع ما كتبناه فى خصيصة (الإنسانية) من كتابنا (الخصائص العامة فى الإسلام) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو.

ويعرض لطريقة المباشرة الجنسية فيقول: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

ويشرع الاستمتاع بالزينة والطيبات فى غير إسراف ولا اعتداء ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣١، ٣٢).

وكما يرعى الإسلام فطرة الإنسان: يرعى كرامة الإنسان، فلا يسمح بإهانة الإنسان لا حيا ولا ميتا. لا يجيز الإسلام إذلال الإنسان لأخيه الإنسان، فالناس كلهم مخلوقون لله، ولا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

والإسلام كذلك يرعى حرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله. فحياة الإنسان مقدسة، ولها حرمة عظيمة عند الله، لا يجوز قتلها بغير الحق، حتى إن القرآن ليقرر مع كتب السماء: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢).

والرسول ﷺ يقول: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»[١].

ويقول: «من قتل معاهدا (أى غير مسلم) لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة شهر»[٢].

بل الإسلام يحترم حياة الحيوان، فلا يجيز قتله بغير حق، كما فى الحديث: «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٣].

وكما لا يجوز الاعتداء على حياة الإنسان، لا يجوز الاعتداء على جسمه أو عضو منه بالضرب والأذى.

وكما لا يجوز الاعتداء على الدم: لا يجوز الاعتداء على العرض. ويقصد بـ

---

(١) رواه النسائى فى كتاب (تحريم الدم) من سنن عن عبدالله بن عمرو (٧/ ٨٢، ٨٣) وروى نحوه من حديث بريدة.

(٢) رواه البخارى عن ابن عمرو (٣١٦٦). ورواه الترمذى فى الديات (١٣٩٥) وابن ماجه عن البراء بن عازب (٢٦١٩).

(٣) رواه البخارى عن ابن عمر (٣٤٨٢).

(العرض) ما نقصده بكلمة (الكرامة والسمعة). فلا يجوز لإنسان أن يشوه سمعة إنسان، فلا يجوز سبه ولا شتمه، ولا نداؤه بلقب لا يحبه، ولا السخرية منه والاستهزاء به، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١١).

وكذلك حرم الإسلام (الغيبة) وهو أن تذكر الإنسان فى غيبته بما يكره، ولو كان ذلك فيه بالفعل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

وحتى بعد موت الإنسان لا ينبغى أن يذكر إلا بخير، كما فى الحديث: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير»[١] وفى حديث آخر: «لا تسبوا الموتى فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»[٢].

وكذلك حرم الإسلام الاعتداء على المال، فلا يحل له أخذ مال امرئ إلا بطيب نفس منه، ويحرم عليه أن يأخذه بطريق الغصب العلنى، أو السرقة الخفية، أو الغش فى بيع أو شراء، أو إجارة، أو ترويج ما لا يحل ترويجه، أو أخذ رشوة سافرة أو مقنعة، أ وأكل مال الغير بأى طريقة من طرق الباطل كالقمار، وأخذ أجرة على عمل محرم وغير ذلك.

أشد ما يحرمه الإسلام: ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وقسوة الإنسان على أخيه، والظلم والقسوة لا يجيزهما الإسلام لمسلم ولا لغير مسلم، لا فى سلم ولا فى حرب.

والإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لون بشرته، أو العرق الذى ينتمى إليه، أو اللغة التى يتكلمها، أو الإقليم الذى يسكن فيه، أو الطبقة التى ينتمى إليها. بحسبه أنه إنسان.

---

(١) رواه النسائى عن عائشة، كما فى صحيح الجامع الصغير (٧٢٧١).

(٢) رواه البخارى عن عائشة (١٣٩٣).

روى البخارى فى صحيحه عن جابر أن النبى ﷺ مروا عليه بجنازة ميت، فقام لها واقفا، (احتراما وتكريما) فقالوا: يا رسول الله؛ إنها جنازة يهودى! فقال: «أليست نفسا؟». فما أروع الموقف، وما أروع التفسير له!

الإسلام ينظر إلى الجنس البشرى كله بوصفه أسرة واحدة، تنتمى إلى الله تعالى بالعبودية، وإلى آدم بالبنوة، فربها واحد، وأبوها واحد، وهذا ما أعلنه نبى الإسلام على الجموع الحاشدة فى حجة الوداع معلما وموجها، فقال: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب...».

وهو ما قرره القرآن فى نص صريح حين قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ومعنى (لتعارفوا) أى ليعرف بعضكم بعضا، ويتفاهم بعضكم مع بعض، وهذا أساس التعاون بين الجميع، فإن أكثر ما يضر بالعلاقات الإنسانية: أن يجهل بعضهم بعضا، ويبتعد بعضهم عن بعض، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ (النساء: ١) وما أجدر كلمة (الأرحام) فى هذه الآية أن تشمل - فيما تشمل - الأرحام الإنسانية العامة، بين البشر بعضهم وبعض. كما يوحى به السياق (خلقكم من نفس واحدة).

ولقد ظهر الإسلام، والفوارق بين الناس قائمة على قدم وساق: الفوارق اللونية: أبيض وأسود، والفوارق العرقية: عربى وعجمى، والفوارق النسبية: شريف ووضيع، والفوارق الاقتصادية: غنى وفقير، والفوارق اللغوية والإقليمية والطبقية وغيرها، فأسقط الإسلام هذه الفوارق كلها: نظريا حين أعلن المساواة بين الناس جميعا، وأنهم كأسنان المشط، لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربى على عجمى، ولا عكس ذلك، إلا بالتقوى. وعمليا: حين فرض فرائض على الناس جميعا، لا يعفى أحد منها لنسبه أو مركزه، وهم فى أداء هذه الفرائض متساوون، ففى فريضة كالصلاة يقف الجميع وراء الإمام خاشعين لله، من سبق إلى مكان فى الصف الأول فهو أحق به، ومن تأخر جلس حيث ينتهى به المجلس، وقد نجد الوزير بجوار الناطور (الحارس)، وأستاذ الجامعة بجوار الخادم.

وأكثر من ذلك فى ساحة الحج، حيث ترى الأمير والمأمور، والكبير والصغير، وصاحب القناطير المقنطرة ومن لا يملك شيئا: يقفون جميعا فى هيئة واحدة، قد لبسوا ثيابا بيضاء متواضعة، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، منادين بنداء واحد: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك).

لقد أنصف الإسلام المستضعفين فى الأرض، ورفع من قدرهم، وهيأ لهم الفرص، ليأخذوا حقوقهم بجهودهم، ويحتلوا مكانتهم بعلمهم وعملهم.

حتى رأينا رجلا حبشيا أسود اللون مثل بلال بن رباح، يعتنق الإسلام مبكرا، فيعذب من أجله، فيشتريه سيدنا أبو بكر، فيعتقه. فيصبح بعد ذلك سيدا فى المسلمين، حتى إن عمر بن الخطاب ليقول مثنيا على أبى بكر: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا. يعنى: بلالا رضى الله عنهما.

والمسلمون فى أنحاء الأرض، وعلى مدار التاريخ يقولون: سيدنا بلال رضى الله عنه.

صنع الإسلام ذلك منذ ظهوره، فى حين كانت جاهليات العالم كله، تقسم الناس طبقات متفاوتة المراتب بعضها فوق بعض، فى بلاد فارس، وبلاد الروم، وبلاد الهند، وفى بلاد العرب نفسها. فجاء الإسلام يقرر المساواة بين الناس، وأن الناس يولدون أحرارا متساوين، وأنهم يتفاوتون بالعلم والعمل والإحسان، أو ما يعبر عنه بالتقوى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ (المائدة: ١٠٠)، ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (النساء: ٩٥)، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١، ١٠٢).

«يا فاطمة بنت محمد، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا. من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

---

(١) رواه البخارى وغيره.

موقف خطابنا الدينى:

إن من جوانب القصور فى خطابنا الدينى المعاصر : أنه لم يعط (البعد الإنسانى) فى الإسلام حقه كما ينبغى ، ولم يفرد له المساحة الواجبة ، التى أفردها له القرآن ، وأفردتها له السنة ، وأفردتها له مصادر التراث الإسلامى فى التفسير والحديث والفقه والتصوف . فهذا الخطاب يتحدث دائما عن واجبات الإنسان ، ولا يكاد يتحدث عن حقوق الإنسان ، وحرية الإنسان ، وكرامة الإنسان .

إن الفوج الأول من آيات الوحى الإلهى الذى نزل على محمد ، وكان خمس آيات قصار من القرآن ، ذكر فيها الإنسان مرتين : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق : ١ ـ ٥) . بل القرآن كله إما حديث إلى الإنسان ، وإما حديث عن الإنسان . والرسول الكريم ليس إلا بشرا مثلنا غير أنه يوحى إليه ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . .** ﴾ (الكهف :) رسل الله جميعا كانوا بشرا مثلنا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق .

لابد لخطابنا الدينى أن يعطى عناية أكبر ، للإنسان ومعاناة الإنسان ، ومشكلات الإنسان ، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وأن يسهم فى تحرير الإنسان من كل ما يجلب عليه الحزن والقلق والاكتئاب واليأس وسائر أمراض النفس التى أصبحت سمة العصر ، والتى جعلت كثيرا من الناس يعيشون فى ديناهم تعساء ، أحياء كالأموات ، أو أمواتا كالأحياء .

منحتهم الحضارة الحديثة الرفاهية ، ولكنها لم تمنحهم السكينة ، وفرت لهم المتعة المادية ، ولم توفر لهم السعادة الروحية ، هيئات لهم الوسائل والأدوات ، ولم تهيئى لهم المقاصد والغايات ، فهم يحيون حياة لا يعرفون لها هدفا ، ولا يجدون لها معنى ، ولا يذوقون لها طعما ! وصدق ما قاله أحد فلاسفة الشرق لأحد فلاسفة الغرب : أنكم أحسنتم أن تحلّقوا فى الهواء كالطير ، وأن تغوصوا فى البحر كالحوت ، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كإنسان !

٢- يؤمن بالوحى ولا يغيب العقل

ومن خصائص خطابنا الإسلامى فى عصر العولمة: أنه يؤمن بالوحى، ولا يغيب العقل.

فهو يؤمن بالوحى باعتباره أساس كل دين سماوى. فتعاليم الدين وأحكامه ليست من صنع النبى - أىّ نبى - ووحى فكره ووجدانه، بل أوحى الله بها إليه عن طريق من طرق الوحى، كالإلهام، والرؤى الصادقة، ونزول الملك بكلام الله إليه، والخطاب المباشر من الله تعالى، كما كلم موسى عليه السلام.

فالأنبياء هم سفراء الله تعالى إلى عباده، بعثهم مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومحمد ﷺ خاتم النبيين، أنزل الله عليه وحيه وقرآنه بطريق الوحى الجلى، بوساطة الملك جبريل عليه السلام أمين الوحى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥).

وقال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ (النجم: ١ ـ ٦). شديد القوى هو جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦) فالله تعالى منزل الوحى، وجبريل إنما هو حامله، ومحمد هو متلقيه ومبلغه عن ربه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧).

ونحن المسلمين بعد أن رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا،

وبالقرآن إماما: أصبحنا ملتزمين ـ بحكم عقيدتنا ـ بأحكام الإسلام وأوامره ونواهيه: في العقيدة والشريعة والسلوك والمفاهيم والتقاليد. فنحن نصلي ونصوم ونتعبد كما يأمرنا الإسلام، ونحن نأكل ونشرب ونلبس ونتجمل ونبيع ونشتري ونتعامل، كما يأمرنا الإسلام، ونحن نتزوج ونعاشر ونتجب، ونتوافق أو نطلِّق، كما يأمرنا الإسلام، ونحن نتعامل مع أمرائنا وحكامنا في السلم والحرب، والعافية والبلاء، كما يأمرنا الإسلام. ونحن نتعامل مع غير المسلمين في الداخل والخارج، كما يأمرنا الإسلام. فما دام هناك أمر ملزم من الله ورسوله، أو نهي محرِّم من الله ورسوله، فليس لنا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

ويقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ولا يكون الفرد المسلم مسلما، ولا المجتمع المسلم مسلما حقا، إلا إذا احتكم كل منهما إلى شريعة ربه، مؤمنا بأن ما شرعه الله له خير مما يشرعه لنفسه، وأنه ليس أعلم من الله بخلقه، ولا أبر بهم منه سبحانه وتعالى، بل هو أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها. وقد شرع لهم من الأحكام ما يعلم أن فيه الخير والمصلحة لهم في دنياهم وآخرتهم ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

لهذا كان الحكم بما أنزل الله على رسوله فرضا مؤكدا، لا يجوز أخذ بعضه دون بعض، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩).

وقد أنكر الله تعالى على بني إسرائيل قبلنا: أنهم جزّءوا دينهم، فقبلوا منه ما راق لهم، وتركوا ما لا يتفق وهواهم، فقال تعالى تقريعا لهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (البقرة: ٨٥).

ومع دعوة الخطاب الإسلامي إلى الإيمان بما جاء به الوحي، والالتزام به أمرا ونهيا، في العبادات أو المعاملات: يدعو هذا الخطاب ـ في الوقت نفسه ـ إلى احترام العقل، الذي لولاه ما ثبت الوحي.

ولهذا قال علماء الإسلام: لولا العقل ما ثبت النقل (أى الوحى). لأن العقل هو الذى أثبت لنا قضيتين من قضايا العقيدة الكبرى.

فهو الذى أثبت وجود الله تعالى، إذ لم نعرف الله بالوحى، لأن ثبوت الوحى لا يكون إلا بعد ثبوت الموحِى به، وثبوت الرسول لا يكون بعد ثبوت المرسِل، هو الله.

فبعد أن أثبت العقل وجود الله تعالى وحكمته وقدرته على إرسال الرسل، وتأييدهم بالآيات البينات التى تثبت نبوتهم، وتفحم خصومهم، وأنه لا يليق بحكمة الرب الحكيم الرحيم القادر على كل شىء: أن يدع عباده هملا، ويتركهم سدى، وهو قادر على أن يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويعرفهم ما يجب عليهم نحوه، وما يسعدهم فى أولاهم وأخراهم، ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه - بعد هذا آمن العقل بأن فلانا هذا - التى قامت المعجزة على يديه - هو رسول من عند الله، إذ لا يقدر بشر على أن يمده بالآيات الخارقة التى تثبت دعواه وتؤيد حجته.

وبعد أن أثبت العقل النبوة: يعزل العقل نفسه - كما عبر الإمام الغزالى - ليتلقى من الوحى الأوامر والنواهى والتعاليم، لأن سلطة النبوة أعلى من سلطته، ونور النبوة أسطع وأرفع من نور عقله، فعقله قد يخطئ أو يضل أو يخلط أو ينسى، ولكن النبوة لا تخطئ، لأنها من عند الله. ولو أخطأ النبى فى أمر اجتهد فيه برأيه، فسرعان ما يأتى الوحى مصححا ومصوّبا، لأن الله تعالى لا يقره على باطل، لأنه لو أقره عليه لأصبح شرعا متبعا.

الإسلام يحترم العقل، لأن به عرفنا الله، وبه عرفنا رسول الله، وبه عرفنا كتاب الله.

وهو يحترم العقل، لأننا بالعقل نفهم خطاب الله، ونفسر كتاب الله، ونستنبط أحكام الله، فقد شاء الله أن ينص على بعض الأحكام فى كتابه أو على لسان رسوله، وأن يدع منطقة فارغة من التشريع والأحكام الملزمة سميناها فى بعض كتبنا (منطقة العفو)[1] أخذا من الحديث القائل: «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو (عفو) فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا، ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)[2].

---

(١) فى كتابنا (عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية).

(٢) رواه الحاكم عن أبى الدرداء وصححه (٢/ ٣٧٥) ووافقه الذهبى، كما رواه البزار، ورجاله ثقات كما قال الهيثمى فى (مجمع الزوائد) ٧: ٥٥.

وهذه المنطقة - منطقة العفو - مطلوب من العقل أن يملأها - عند الحاجة - بما يهديه إليه اجتهاده فى ضوء النصوص الأخرى: إما عن طريق القياس بشروطه أو الاستصلاح أو الاستحسان أو غيره من أدلة ما لا نص فيه[1].

وأما ما جاءت فيه نصوص قرآنية أو نبوية، فمهمة العقل أن يجتهد فيها ليستخرج منها الأحكام فى ضوء الأصول والقواعد التى ارتضتها الأمة فى الاستنباط، وبناء الفروع عليها. وهنا تتعدد المدارس، وتتنوع المشارب، ما بين من يميل إلى الرأى ومن يميل إلى الأثر، ومن ينظر إلى المقاصد، ومن يجنح إلى الظواهر، والشريعة تتسع لهؤلاء جميعا. وفى هذا التنوع إثراء للفقه وسعة ورحمة[2]وإن كنت مع المدرسة الوسطية التى تجمع بين النظر والأثر، وننظر إلى النصوص الجزئية، فى ضوء المقاصد الكلية.

وهو يحترم العقل بعد ذلك، لأنه أداته الفذة فى معرفة الكون من حوله، فهو الذى يكتشف قوانين المادة، ويفسر الظواهر الكونية، ويربط بينها، ويستخدمها فى مصلحة الإنسان. كما يوظفها فى تثبيت الإيمان ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ (فصلت: ٥٣).

فلولا العقل ما استطعنا أن نسخر قوى الطبيعة لخدمتنا بإذن الله، وبالعقل استطاع أن يطير الإنسان فى الهواء كالنسر، بل أرفع، وأن يغوص فى البحر كالحوت أو أعمق، وأن يحطم الذرة، ويصنع الحاسوب، ويصعد إلى القمر، ويجتهد أن يغزو الكواكب الأبعد.

إن هذا العقل يجب أن يُحتَرم لدى المسلمين، فلا يعطلوه عن وظيفته، ووظيفته الأساسية التفكير والبحث والاستنباط والنقد، وليست مهمته مجرد التلقى والتقليد والجمود، وقبول كل ما يلقن للإنسان دون أن يمتحنه، ويفحصه، ويعرف صدقه من كذبه، أو صحته من فساده، أو صوابه من خطئه.

ولهذا كان على العقل أن يناقش وينقد، ويطلب دليلا على كل قضية، وهذا ما يعلمه لنا القرآن، فهو الذى يقول بكل وضوح: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (النمل: ٦٤) ﴿ **نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (الأنعام: ١٤٣).

---

(١) للشيخ عبدالوهاب خلاف - رحمه الله - كتاب بعنوان (أدلة التشريع فيما لا نص فيه).

(٢) انظر فصل (الاختلاف ضرورة، ورحمة وسعة) من كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم).

ولهذا كان لا بد في إثبات الحسيات من دليل المشاهدة ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ (الزخرف: ١٩).

ولا بد في إثبات النقليات من دليل التوثيق ﴿إِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٤) ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨).

وكان لا بد في إثبات العقليات من البرهان المنطقي، ولهذا تكرر في القرآن مطالبة أصحاب الدعاوى العقدية أن يأتوا بالبرهان على دعواهم ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (الأنبياء: ٢٤)، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

والعقل الذي نريده، هو: العقل الحر الباحث عن الحقيقة، الطليق من إسار التقليد، واتباع الظنون والأهواء، فإن الظن لا يغني من الحق شيئا، والهوى يعمي ويصم، أما العقل المكبل بأغلال الانبهار بفلسفة معينة، أو بثقافة بشرية، أو بتقليد الماضين، فهذا عقل غير مأمون على تحصيل المعرفة الصحيحة، والوصول إلى الحقيقة الصريحة. وقد قال الإمام ابن الجوزي: (اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها: أن يطفئها، ويمشي في الظلمة)[1].

والتقليد مذموم في شرعة الإسلام: سواء كان تقليدا للأجداد والآباء، أم للسادة والكبراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: ٦٧).

بل ينكر الإسلام تقليد العامة، والسير مع الجماهير، دون الرجوع إلى عقل أو شرع: «لا تكونوا إمعة: تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[2].

---

(١) من كتابه (تلبيس إبليس) ص ٨١.

(٢) رواه الترمذي في البر عن حذيفة (٢٠٠٨) وقال: حسن غريب.

وأشد ما يكون التقليد مذموما : حين تقلد أمة فلسفة أمة أخرى ، وتقبل ـ مبصرة أو غير مبصرة ـ فكرتها عن الدين ، والمجتمع ، عن الله والإنسان ، عن الدنيا والآخرة ، عن المعرفة والقيم ، ويقودها أفراد منها ، فتنوا بالآخرين ، وغُلبوا على عقولهم كأنهم مغيّبون أو مخدرون!

جربنا ذلك قديما فى افتتان فئة من كبار مثقفى المسلمين بفلسفة الإغريق ، بهروا بها ، وأذعنوا لسلطانها ، ولم يحاولوا أن يناقشوها أو يمتحنوها ، بل اعتبروها أو اعتبروا قضاياها (مسلّمات) واتخذوها أصلا ، والإسلام فرعا ، فما وافقها من عقائد الإسلام وشرائعه فهو مرضى مقبول ، وما خالفها فهو مرفوض أو مؤوّل ، ولو كان تأويلا بعيدا .

وبعض ما كان يعتبر حقائق عندها وعندهم ، يعرف تلاميذ المدارس الابتدائية اليوم : أنه خرافة وباطل ، وقد كشف العلم الحديث زيفه .

حتى جاء حجة الإسلام الغزالى فهدم هذا الصنم الكبير على رأس أهله ، وبين ما فيه من أباطيل وأوهام فى كتابه (تهافت الفلاسفة) . فأبطل الفلسفة بمنطق الفلاسفة .

ثم جاء بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأكمل مشواره ، ورد على الفلاسفة ومن تأثر بهم من المتكلمين ، وبين موقف الإسلام بمنطق العقل الفطرى ، وضبط جموح العقل الإنسانى بضوابط الوحى الربانى ، وذلك فى عدة كتب له أهمها (درء تعارض العقل والنقل) والذى سمى أحيانا (موافقة صحيح المنقول صريح المعقول) الذى نشر فى عشْرة مجلدات .

وفى عصرنا امتحن العقل الإسلامى بقضية أخرى : فتنة الانبهار بصنم آخر ، هو صنم الحضارة الغربية الحديثة ، بما تحمله من فلسفة للحياة والإنسان ، مغايرة لفلسفة الإسلام ، سواء فى فلسفتها الليبرالية الفردية أم فى فلسفتها الجماعية الماركسية ، فكلتاهما فلسفة حسية مادية ، مغرقة فى النفعية والدنيوية ، تغلّب المادة على الروح ، والدنيا على الآخرة ، والعقل على الوحى ، والمنفعة على الأخلاق ، هذا إن لم ترفض الروح والآخرة ، والوحى والأخلاق رفضا مطلقا ، كما هو شأن الفلسفات المادية ، ومنها : الشيوعية الماركسية .

لقد وجد من بنى جلدتنا من فتنوا بهذه الحضارة ، ومن لا يزالون مفتونين بها ،

ويريدون منا: أن ننسلخ من جلدنا، وننخلع من ذاتنا، لنتبع هذه الحضارة شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه وراءهم.

هؤلاء الذين سميتهم (عبيد الفكر الغربى) وهم الذين أرادوا أن (نفنى) فى الغربيين، ونسير فى ركابهم، ونأخذ حضارتهم كلها، بجذورها الفلسفية، وخلفياتها العلمانية، وتناقضاتها التاريخية، أو كما قال قائلهم: بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.

ونريد من (العقل المسلم) اليوم أن يتحرر من التبعية والتقليد للغرب وفلاسفته، كما دعوناه أن يتحرر من التبعية والتقليد للشرق وأئمته. بل هذا التحرر أحق وأولى، فإن أئمة الشرق هم منا ونحن منهم، نشاركهم فى الأصول الكلية، وفى الفكرة المبدئية، ولكن زماننا غير زمانهم، ومشكلاتنا غير مشكلاتهم، وظروفنا غير ظروفهم.

نريد للعقل المسلم أن يفكر ويبحث، ويتحرر من التبعية والتقليد، وألا يتعبد إلا بمحكمات النصوص الربانية، التي تضيء له الطريق، وتهديه سواء السبيل، وهي في الحقيقة منارات تهدي، وليست قيودا تكبِّل، تسدد العقل ولا تقيده، وتحرره ولا تستعبده ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).

لقد رأينا من الصالحين من يعتبرون التفكر عبادة، حتى قال بعضهم: تفكر ساعة خير من عبادة سنة. وكيف لا، وقد وصف الله الأخيار من عباده من (أولي الألباب) بقوله سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

كما يعتبرون النظر في الكون وسننه وآياته: فريضة أمر الله تعالى بها ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

فهذه الصيغ القرآنية: الأمر في قوله (انظروا) أو الإنكار في قوله (أولم ينظروا) تدل على وجوب النظر العقلي، وأنه فريضة لا نافلة. وهذا ما جعل أحد كبار الكتاب فى عصرنا يصنّف كتابا سماه (التفكير فريضة إسلامية) وصدق فى تسميته.

ليس عندنا ـ نحن المسلمين ـ ما فى أديان أخر من عزل العقل عن قضية الإيمان، واعتبار الإيمان مسألة تتعلق بالوجدان، ولا علاقة بها بعقل الإنسان. ولا غرو أن وجدنا عندهم مثل هذه العبارات: أعتقد وأنت أعمى! أو: أغمض عينيك ثم اتبعنى. بل قال بعض فلاسفتهم: أومن بهذا؛ لأنه غير معقول! كأن الإيمان والعقل فى نظره لا يتلاقيان.

أما عندنا ـ نحن المسلمين ـ فلا بد للإيمان أن يؤسس على العلم، حتى يؤمن الإنسان بربه وبرسوله عن بينة، ويسير فى طريقه على بصيرة ونور، فالعلم دليل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج: ٥٤) فالعلم يؤدى إلى الإيمان، والإيمان يؤدى إلى الإخبات، هكذا بالترتيب الذى دل عليه العطف بالفاء (ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم).

وأكابر علماء المسلمين يقولون: إن إيمان المقلد ـ تقليدا مطلقا ـ لا يقبل، لا بد أن يكون إيمانه مبنيا على الدليل، ولو لم يستطع التعبير عنه بعبارة علمية.

وقد كنا نحفظ، ونحن طلبة فى المرحلة الثانوية بالأزهر: قول صاحب (الجوهرة) فى علم التوحيد:

إذ كل من قلد فى التوحيد　　إيمانه لم يخل من ترديد!

ولا توجد عندنا ـ نحن المسلمين ـ مشكلة الصراع بين العقل والوحى، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين العلم والدين، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

ومن القواعد المعلومة المقررة عندنا: أنه يستحيل التناقض بين قواطع العقل وقواطع الشرع، لأن الحق لا يعارض الحق أبدا. وإذا وجد شىء من هذا فى الظاهر، فلا بد أن يكون لأحدهما تفسير أو تأويل يخرج به عن التناقض.

أكد هذا المحققون من علماء الإسلام وأئمته الكبار، الذين جمعوا بين علوم الشرع وعلوم العقل، مثل إمام الحرمين والغزالى والراغب الأصفهانى وابن رشد وابن تيمية والشاطبى وابن الوزير وغيرهم من أفذاذ الأمة ومصابيحها.

وحسبى أن أنقل هنا فقرات من كلام الإمام الغزالى لتوضيح هذه الحقيقة التى لا تخفى على ذى بصر، وقد قرر ذلك فى عدد من كتبه، كما بينا - فى كتابنا (الغزالى بين مادحيه وناقديه).

فها نحن نراه فى (إحياء علوم الدين) يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية، ويبين الحاجة إلى كل منهما، ويقرر أن لا غنى بالعقل عن نور الوحى، ولا بالوحى عن نور العقل، بل كل منهما مع الآخر: نور على نور. يقول:

«فالداعى إلى محض التقليد - مع عزل العقل بالكلية - جاهل، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعا بين الأصلين.

فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء، متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة...»(١).

ثم يحمل الغزالى بقوة على من يظن أن ثمة تناقضا بين العقليات والشرعيات، فيقول:

«وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض، فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض فى الدين! فيتحير به، فينسل من الدين، انسلال الشعرة من العجين! وإنما ذلك، لأن عجزه فى نفسه خيّل إليه نقصا فى الدين، وهيهات!»(٢).

وهو يصف عصابة الحق وأهل السنة فى مقدمة كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) بأنهم وحدهم: الذين اهتدوا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله، واطلعوا على طريق التلفيق(٣) بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة

---

(١) الإحياء (٣/ ١٧) ط. دار المعرفة.　　　(٢) المصدر السابق.

(٣) كلمة (التلفيق) يعنى بها: ما نعنيه بكلمة (التوفيق) وليس يعنى بها ما يوحى به اللفظ فى عرفنا اليوم من الاحتيال على الجمع بين متنافرين.

بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أُتوا إلا من ضعف العقول، وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة و(غلاة) المعتزلة فى تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع[1]، ما أُتوا إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم».

ويذكر الغزالى هنا مثالا للعقل والشرع، فمثال العقل: البصر السليم من الآفات، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر، إلا من كان فى غمار الأغبياء «فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس، مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلٍّ بحبل غرور»[2].

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوا للشرع، ولا نصب الشرع عدوا للعقل.

ولا يتصور أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل (أى ما يقطع باستحالته)، ولا أن ينفى ما يثبته العقل، أى ما يقيم البراهين اليقينية على وجوده.

والعكس ثابت أيضا، بمعنى أن العقل لا يتصور أن يثبت ما يقطع الشرع بنفيه، ولا أن ينفى ما يقطع الشرع بثوبته.

وبعبارة موجزة يرى الغزالى: أن العقل لا يمكن أن يثبت حقيقة ينفيها الشرع، وأن الشرع لا يمكنه أن يأتى بعقيدة يحيلها العقل.

وإذا وقع شىء من ذلك، فلا بد أن يكون من جاهل متوهم على العقل، أو متوهم على الشرع[3].

إننا نعتب على كثير من المسلمين أنهم وضعوا عقولهم فى (ثلاجة) فجمدوها

---

(1) أنكر د. عادل العوّا فى تقديم كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) على الغزالى ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة فى العزوف عن الاستضاءة بنور الشرع وقال: إنهم متكلمون، والمتكلمون هم حراس العقيدة بالعقل، ولكن عبارة الغزالى لا تشمل كل المعتزلة، بل الغلاة منهم، فلا وجه للاعتراض.

(2) من مقدمة كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد).

(3) انظر كتابنا. الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه ص ٤٢ ـ ٤٤.

حتى لا تفكر، أو كأنما منحوها إجازة من عناء التفكير، ولذلك راجت فى ساحتهم الخزعبلات، وغاب عنهم (فقه السنن)، فقبلوا من الخوارق وما سموه (الكرامات) ما لا يصدقه عقل، ولا ينتظم به حال مجتمع، مثل ما يذكره الشعرانى فى (طبقات الصوفية) عن خوارق الذين اعتبرهم أولياء، كأن الكون يمضى بغير نظام، ولا ميزان ولا حسبان!.

فلا غرو أن تخلف المسلمون وتقدم غيرهم، وجمدوا وتحرك غيرهم، وناموا واستيقظ غيرهم.

هذا والقرآن يخاطبهم بأولى الألباب، ويدعوهم ليقوموا لله مثنى وفرادى ثم يتفكروا، ويبين لهم الآيات (لعلهم يتفكرون)، ويبين لهم أن فى كونه (آيات لقوم يعقلون) أو (لقوم يتفكرون) أو (لقوم يفقهون) وينكر بشدة على الذين ألغوا عقولهم ليفكروا برءوس غيرهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: ١٠٤).

بل نرى كثيرا من علمائهم الذين تعلموا علم الدين، وظلوا سنوات طوالا يتلقون هذا العلم، لا يجرءون أن يفكروا برءوسهم لمطالب عصرهم وبيئتهم، فلا بد أن يرجعوا إلى الموتى ليفتوهم فيما وقع لهم، وربما لم يجدوا عند هؤلاء الموتى خبرا بهذه النوازل الجديدة التى لم يشهدوها فى عصرهم. ومن هنا لا يستطيع هؤلاء أن يفكروا لأنفسهم، وإذا وجد عالم فكر بنفسه، واستقل بعلمه، ووصل إلى اجتهاد مصيب أو مخطئ: أوسعوه ذما وتجريحا، وصبوا عليه جام غضبهم، ورموه بسموم سهامهم، وربما سقط جريحا أو قتيلا.

هذا وهم يقرءون ما قرره علماؤنا الأقدمون من أهمية العقل مع النقل، وأنه لا غنى عن العقل الصريح، مع النقل الصحيح، كما قال الإمام الغزالى.

إن الخطاب الإسلامى المعاصر يجب أن ينوه بقيمة العقل فى الدين، ويدعو الأمة إلى التعبد لله باستعمال عقولها فى فقه دينها، وفهم دنياها، وأن تحرر العقل من كل قيد يعوقه عن التفكير الحر، والتحليق فى آفاق الكون، والسياحة فى تاريخ العالم، والانتفاع بكل حكمة، صدرت من أى فرد، أو أية أمة، فقد ذكر لنا القرآن أن ابن

آدم الأول تعلم من غراب ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ (المائدة : ٣١) وأن سليمان عليه السلام تعلم من هدهد حين جاءه بعد غيبة، وخاطبه قائلا: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢).

وجاء فى الحديث: أن بعض الصحابة تعلم من الشيطان نفسه، حيث لقنه فائدة علمية حول آية الكرسى، فقال له النبى ﷺ: «صدقك وهو كذوب»[(١)].

لن تنهض الأمة إلا بفك قيود العقل، وتحريره من الجمود والتبعية والتقليد، وإطلاقه باحثا ومفكرا ومستنبطا ومستكشفا، مهتديا بنور الوحى، وبهذا يكون للإنسان المؤمن (نور على نور).

موقف خطابنا الدينى:

ولا ننكر أن من آفات كثير من خطابنا الدينى: أنه أعطى العقل إجازة طويلة، وربما دائمة، فهو معطل عن وظيفته فى فهم الدين، وفهم الحياة، وكل اعتماده على التقليد والتلقين، لا يعطى عقله حق المنافشة لما يلقنه، ولا حق التحرر من تقليد السابقين، بل القى بزمامه إليهم، واطفا الشمعة التى منحه الله إياها، ومشى فى الظلمة، كما قال ابن الجوزى.

لم يقم لله منفردا ولا مع غيره ليفكر، ولم يمنح عقله فرصة ليبحث، وسمح للأباطيل أن تغزو فكره، وللضلالات أن تملأ ساحته، وبالتالى روج هذه الأباطيل عند الجماهير، وحشا بها عقولهم وأفكارهم، فرددوها كالببغاوات.

راجت عند الناس قصص الجن والعفاريت التى تركب الإنسان، وتتحكم فيه، وتنطق على لسانه، وتسخره لما تريد، وسوّق ذلك بعض الوعاظ والخطباء، وصدق الناس ذلك. وهذا غير مقبول فى منطق الإسلام الذى أعلى من قيمة الإنسان، الذى كرمه الله وجعله فى الأرض خليفة، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه، واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. فكيف يمكّن الجنّىّ منه إلى

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة. وانظر: كتابنا (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق).

هذا الحد؟ وقد حدثنا القرآن أن الله تعالى سخر الجن للإنسان، كما فى قصة سليمان، ولم يخبرنا أبدا أنه سخر الإنس للجان! وقد قال تعالى على لسان الشيطان الأكبر يوم القيامة مخاطبا الناس الذين أغواهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢).

وأما مسّ الجن، فهو كما ذكر الله تعالى على لسان أيوب عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١). فهو مس الوسواس الخناس. الذى يوسوس فى صدور الناس.

ومثل ذلك: ما راج فى السنوات الأخيرة، من بدعة (العلاج بالقرآن) حتى وجدنا من يفتح (عيادات لعلاج المرضى بالقرآن!!) وكأنهم بهذا اكتشفوا ما جهله المسلمون فى أزهى عصورهم، وعرفوا مالم يعرفه الصحابة والتابعون وخير القرون. ولو كان هذا النهج صحيحا وقويما لكان سلف الأمة أسبق إليه.

ولو نهج المسلمون هذا النهج، ما شيّد المسلمون فى ازدهار حضارتهم علم الطب، الذى تعلمت منه أوربا، وكانت كتبهم فيه مراجع للعالم كله، واشتهر كثير من الأفذاذ بالجمع بين علم الطب وعلم الدين، مثل الفخر الرازى، وابن رشد الحفيد، وابن النفيس، وغيرهم.

ورسول الإسلام هو الذى وضع الأسس الفكرية لطب علمى قائم على سنن الله فى الأسباب والمسببات، فقد تداوى هو بالأدوية المادية، وأمر أصحابه بالتداوى بها، وأمر بعض أصحابه أن يذهب إلى الطبيب المشهور الحارث بن كلدة الثقفى، واعلن أن الله ما أنزل داء إلا جعل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله.

وسئل عن الأدوية التى يتداوون بها: هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: «هى من قَدَر الله» فحل مشكلة العلاقة بالقدر، التى يستعصى فهمها على كثير من الناس، فبين أن الدواء من قدر الله، كما أن الداء من قدر الله، فنحن ندفع قدر الله بقدر الله.

واعتماد هؤلاء على مثل قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢) لا يعنى أنه شفاء للامراض الحسية التى يعانى منها الناس. وإنما هو شفاء لأمراض النفوس والعقول وأمراض المجتمعات والأمم، بما

يقدمه عقائد، وما يهدى إليه من قيم وتشريعات وتوجيهات تضيء للناس الطريق. ولذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧) فهذه الآية قد قيّدت الآية الأخرى، وبينت أنه شفاء لما فى الصدور من الشكوك والشبهات والخرافات، وكذلك ما فيها من الضغائن والأحقاد وأمراض العجب والغرور والرياء وغيرها من آفات النفوس، التى سماها الإمام الغزالى (المهلكات).

إن تغييب العقل من خطابنا الدينى: لا يتمر إلا قبول الخرافات، وانتشارها بين العوام، مثل المبالغة فى رد كثير من الظواهر إلى السحر، و(عمل) السحرة، الذى يؤثر فى الحب والكره، والجمع والتفريق.

ومثل رد كل بلاء ينزل بالإنسان، أو مرض يصيبه إلى (الحسد) أو (العيْن) التى تدخل الرجل القبر، والجمل القدْر.

ومثل هذا الاعتقاد يمنع الإنسان أن يبحث عن الأسباب الحقيقة لمشكلته، ليعالجها وفق السنن التى أقام لله عليها هذا العالم، وهى ثابتة لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا.

٣ـ يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادية

ومن خصائص خطابنا الإسلامى فى عصر التقارب العالمى، أو ما يسمونه (عصر العولمة): أنه يدعو إلى (الروحانية) التى هى جوهر الدين ولبه، ولكنه لا يهمل الجانب المادى من الحياة ولا يعتبره رجسا من عمل الشيطان.

ذلك: أن الله خلق الإنسان كائنا مزدوج الطبيعة، فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، وهذه النفخة الربانية هى التى ميزته عن سائر الحيوانات، وجعلته أهلا لأن يأمر الله الملائكة بالسجود تكريما له ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١، ٧٢). كما أن قبضة الطين جعلته صالحا لعمارة الأرض والتعامل معها.

فإذا عنى الإنسان بعنصره الروحى وأصله السماوى: سما وارتقى حتى يلتحق بأفق الملائكة، وإذا عاش أسيرا وخادما لعنصره الطينى، وأصله الأرضى: هبط وأخلد إلى الأرض، فينزل إلى حضيض الأنعام، وربما كان أضل منها وأسوأ درجة ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

لهذا كان الجانب الروحى فى الدين هو الغاية وهو الجوهر، وكل الجوانب الأخرى لمساعدته وخدمته.

ماذا يعنى الجانب الروحى؟

والجانب الروحى يشمل:

١ـ الإيمان بالله تعالى وتوحيده، فلا عبادة إلا له، ولا استعانة إلا به، ولا إذعان

إلا لأمره، فهو الخالق المنعم بجلائل النعم ودقائقها، فلا يستحق أن يعبد غيره ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

٢ـ الإيمان بالآخرة، دار الجزاء والخلود، التي توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتجزى بما عملت ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٣٧ ـ ٤١).

٣ـ عبادة الله تعالى وتقواه، بأداء فرائضه، وإقامة شعائره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨).

ولا سيما أركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام وحج البيت.

والإسلام هو الديانة الوحيدة التي تجعل المسلم على موعد مع ربه كل يوم خمس مرات، فهي بمثابة حمام يومى يغتسل فيه من خطاياه وأدرانه وغفلته، ليخرج منها نظيفا طاهرا، فى حين لا تطلب أديان كثيرة من أتباعها إلا زيارة واحدة للمعبد كل أسبوع.

٤ ـ التقرب إلى الله تعالى بالنوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار، ليظل المسلم موصول الحبال بربه في الخلوة والجلوة، في العمل وفى البيت، في العافية والبلاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢)، ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

٥ـ تطهير القلب من الآفات النفسية والخلقية ومن أمراض القلوب، التي تجعله عشا للشيطان، يبيض فيه ويفرخ، وهى التي سماها الإمام الغزالى فى إحيائه (المهلكات) من الكبر والعُجْب والغرور والرياء وحب الدنيا، وحب المال، وحب الجاه، والغضب والحقد والحسد والبغضاء. وينبغى للمسلم أن يجاهد

نفسه حتى تصفو من كدرها، وتخرج من الظلمات إلى النور، وحتى يصبح القلب (قلبا سليما) من الشرك والنفاق والكبر والآفات، ويصبح (قلبا منيبا) إلى الله، وهذا أساس النجاة والفوز عند الله. يقول تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩) ويقول: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٣١ ـ ٣٣).

وروى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].

٦ـ التقرب إلى الله تعالى بفعل الخيرات، والإحسان إلى الناس، والرحمة بالمخلوقات، وإسداء المعروف، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، ومسح دمعة المحزون، كل هذه تعتبر من (عمل الصالحات) ومن القربات إلى الله تعالى، سواء قدمها للمسلمين أم غيرهم، وقد جاء في وصف الأبرار المرضيين عند الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٨، ٩) وكان الأسرى فى ذلك الوقت من المشركين المحاربين.

بل جاء فى الأحاديث الصحاح أن الرحمة بالحيوان، والمساعدة فى دفع جوعه وعطشه: من أعظم القُرَب إلى الله تعالى، حتى صح فى الحديث: أن بغيا سقت كلبا يأكل الثرى من العطش، فغفر الله لها[(٢)]، ولا شيء يكثر على الله تعالى. فقد قال تعالى: ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

كما أن رجلا سقى كلبا فشكر الله له فغفر له، كما جاء فى الحديث الصحيح. فقالت الصحابة: أئن لنا فى البهائم لأجرا يا رسول الله؟ قال: «فى كل كبد رطبة أجر»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٤٦٥٠) عن أبى هريرة.

(٢) رواه مسلم (٤١٦٣) عن أبى هريرة.

(٣) رواه البخارى (٢١٩٠) ومسلم (٤١٦٢) عن أبى هريرة.

لم يكن يخطر فى بالهم أن الإحسان إلى البهيمة العجماء يستوجب أجرا، حتى بين لهم الرسول قيمة هذا العمل الدينية والأخلاقية، وأن الرحمة بكل (كبد رطبة) وهى كناية عن كل (كائن حى) يثاب عليها من قام بها، فإن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما.

لا إغفال للجانب المادى:

ومع هذه العناية البالغة بالجانب الروحى فى الإسلام، التى يجب أن يركز عليها خطابنا فى عصر العولمة: ينبغى ألا ينسى هذا الخطاب الجانب الآخر: الجانب المادى، فإنما يقوم الإنسان بعنصريه: الطينى والروحى.

الاهتمام بالدنيا وعمارتها:

ومن مظاهر الاهتمام بالجانب المادى: الاهتمام بالدنيا، فهى التى استخلفنا الله فيها، وكلفنا فيها عبادته، وعمارة أرضه، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١) وهى التى سخر لنا كل ما فيها من نعم لخدمتنا، وتسهيل مهمتنا ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤).

ومن هنا لم يحظر الإسلام على المسلم أن يعمل للدنيا، وأن يملكها، وأن يحسّنها ويجمّلها، حتى يملك الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، كما قال تعالى فى مدح قوم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١) وكان الرسول أكثر ما يدعو بهذا الدعاء.

الإسلام يعتبر العمل لعمارة الدنيا عملا صالحا: إذا توافرت فيه النية الصالحة، وأخذ حظه من الإتقان، ولم يَجُرْ فيه على حق أحد، ولم يشغل عن عبادة الله

تعالى، كما وصف الله رواد بيوته بقوله: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: ٣٧).

الخطر هو: إيثار الآخرة على الدنيا، وأن يجعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، كالذين ذمهم الله بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم: ٣٠) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧ ـ ٣٩).

ومن المؤمنين من رزقهم الله ثواب الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٨).

وقد آتى الله بعض رسله من الدنيا ما آتاهم، مثل يوسف وداود وسليمان، فقد آتاهم الله الملك، وآتى سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده.

المهم أن يملك المؤمن الدنيا ولا تملكه، وأن يجعلها فى يده، ولا يسكنها فى قلبه.

نعم المال الصالح للمرء الصالح:

ومن دلائل العناية بالجانب المادى: أن الإسلام لا يعتبر المال شرا، بل يعتبره خيرا ونعمة إذا أخذ من حله، وأنفق فى محله، ولم يبخل به عن حقه. وقد كان النبى الكريم يدعو الله فيقول: «اللهم إنى أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»[١]. وامتن الله عليه، فقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٨) وقال: «ما نفعنى مال كمال أبى بكر»[٢] ودعا لخادمه أنس: أن يكثر الله ماله[٣]. وقال لسعد بن أبى وقاص: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء: خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[٤].

وكان من العشرة المبشرين بالجنة والمرشحين للخلافة، أو الذين استخلفوا بالفعل أغنياء، مثل: أبى بكر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٩٨) عن عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه الترمذى (٣٥٩٤) وقال: حسن غريب، عن أبى هريرة.

(٣) رواه البخارى (٥٨٥٩) ومسلم (١٠٥٥) عن أنس.

(٤) رواه البخارى (١٣١٣) ومسلم (٣٠٧٦) عن سعد بن أبى وقاص.

ولا ينظر الإسلام إلى المال والغنى نظرة المسيحية إليه، فالإنجيل يقول: (إنه لاسهل أن يدخل الجمل فى ثقب أبرة، من أن يدخل الغنىّ ملكوت الله!) ويقول: «إنكم لا تستطيعون أن تجمعوا بين الله والمال[1]».

أما رسول الإسلام فيقول: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[2] ويقول تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح: ١٠ ـ ١٢).

ولقد جاءت نصوص وأحكام القرآن والسنة تنظم شأن المال والتعامل فيه، وتعتبره عصب الحياة، فلا يترك للحمقى والطائشين ليتلفوه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (النساء: ٥)، بل أنزل الله تعالى أطول آية فى كتابه لينظم شأنا غير كبير يتعلق بالمال، وهو كتابة الدين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ... الآية ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

كما وضع القرآن قاعدة هامة فى توزيعه ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (الحشر: ٨).

كما أن أركان الإسلام فيها ركن يتعلق بالمال وتوزيعه لمستحقيه، وهو الزكاة.

كما أن الموبقات السبع تتضمن كبيرتين تتعلقان بالمال، وهما: «أكل الربا، وأكل مال اليتيم».

وفى وصايا سورة الإسراء، نجد جملة منها تتعلق بأمر المال، مثل قوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الإسراء: ٢٧). وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ (الإسراء: ٣٤) وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ (الإسراء: ٣٥).

---

(١) انظر: انجيل متى: ١٩/ ١٦ ـ ٢٦ ومرقص: ١٠/ ١٧ ـ ٣١ ولوقا: ١٨/ ١٨ ـ ٣٠.

(٢) رواه أحمد عن عمرو بن العاص.

وفى الأرباع الأخيرة من سورة البقرة ركزت على المال وإنفاقه وتوزيعه وكسبه وتنميته، وحملت على الذين يأكلون الربا، وأنذرتهم إنذارا شديدا إذا لم يذروا الربا ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

وأحكام المعاملات المالية تأخذ مساحة كبيرة من الفقه الإسلامى، حتى يستقيم التعامل على أساس العدل والوضوح، بعيدا عن الظلم والغرر والميسر.

وجاء فى القرآن والسنة نصوص كثيرة تحض على عمارة الأرض بالزراعة والصناعة، وإحياء الموات، والتجارة، والاحتراف بشتى الحرف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»[1] فقد كان عمل داود صناعة الدروع الحديدية، كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (سبأ: ١٠) ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[2].

كما وردت أحاديث فى فضل التجارة والتاجر الصدوق.

ومن الطريف: أن علماء الإسلام اختلفوا: أى هذه الأعمال أفضل وأكثر أجرا عند الله؟

والذى رجحه المحققون: أنها كلها مطلوبة، وأفضلها ما كان الناس فى حاجة أكثر إليه، وأعرض الناس عنه، فإذا كان الناس فى حاجة أكثر إلى الزراعة، ولم يلتفت الناس إليها: كانت هى الأفضل، وكذلك الصناعة والتجارة.

وقد اعتبر فقهاء المسلمين إتقان الصناعات التى يحتاج إليها الناس: فرض كفاية على الأمة، بحيث إذا توافر لها العدد الكافى من الخبراء والعاملين فى كل فرع منها، سلمت الأمة من الإثم، وإن قصرت، ووجدت ثغرات لم تُسَدّ: أثمت الأمة كلها، وأولو الأمر فيها على وجه الخصوص.

---

(١) رواه البخارى عن المقدام.

(٢) متفق عليه عن أنس. اللؤلؤ والمرجان.

وفى عصرنا يجب أن تتقن الأمة العلوم الطبيعية والرياضية، وما يلحق بها من التطبيقات التكنولوجية، حتى لا تتخلف الأمة عن ركب العالم الذى يخوض الآن ثورات فى مجالات شتى: الذرة والفضاء والإلكترونيات والبيولوجيا والاتصالات والمعلومات.

إن المسلم الذى يعمل فى هذه الميادين بجدارة وإتقان إنما يتعبد لله سبحانه، ويتقرب إليه بعمله هذا. إن العبادة لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وصيام. إن كل عمل ينفع الأمة، ويرقى بها، ويحصنها من أعدائها، هو من أعظم العبادات والقربات إلى الله تعالى.

إن العمل للدنيا مطلوب من المسلم، كالعمل للآخرة، والمهم هو صحة الهدف، وصدق النية، وفى الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»(١).

وليس المطلوب أى عمل، ولكن العمل المتقن، كما فى الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء»(٢) المراد بالإحسان: الإتقان والإحكام، وقال ﷺ: «إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه»(٣). وقال: «إن الله تعالى محسن فأحسنوا»(٤).

ومن الروائع النبوية فى هذا الجانب: ما أمر به النبى كل مسلم أن يظل عاملا للحياة، منتجا فيها، معطاء لها، ولو رأى الساعة تقوم أمامه، وذلك فى قوله ﷺ: «إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»(٥). ولماذا يغرسها، وهو لن يأكل منها، ولا أحد من بعده؟ إن هذا يشير إلى أن العمل عبادة، وعمارة الأرض، قربة إلى الله، والمطلوب من المسلم أن يستمر عاملا لله، مؤديا لرسالته، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها.

الاستمتاع بالطيبات:

ومن مظاهر المادية: الاستمتاع بطيبات الحياة، فإن الله لم يحرم على الناس طيبا

(١) متفق عليه عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه مسلم عن شداد بن أوس (١٩٥٥) وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(٣) رواه البيهقى فى الشعب عن عائشة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (١٨٨٠).

(٤) رواه ابن أبى عاصم وابن عدى عن سمرة وصححه فى المصدر السابق (١٨٢٣).

(٥) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وعبد بن حميد عن أنس، وذكره الألبانى فى صحيحته (٤٦٩) وفى صحيح الجامع الصغير (١٤٢٤).

مما خلقه الله لهم، بل كان عنوان رسالة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل: أنه ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وأنكر القرآن بشدة على الذين يحرمون زينة الله والطيبات من الرزق، فقال بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢)، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف: ٣١).

فلا حرج على المسلم المتدين أن يأكل من طيبات الدنيا، ويستمتع بزينتها الحلال، وقد سماها القرآن (زينة الله) التى أخرج لعباده، تشريفا لها، وترغيبا فيها.

وقال رسول الإسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1].

وسمع أحد الصحابة الرسول يقول: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال: يا رسول الله، إنى رجل أولعت بالجمال فى كل شيء، ولا أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل، فهل هذا من الكبر؟ فقال: «إن الله جميل يحب الجمال! الكبر بطر الحق وغمط الناس»[2].

إنما يكره الإسلام الاستغراق فى هذا الاستمتاع حتى يصل إلى درجة الترف، الذى يفسد الحياة، ويفسد الإنسان، ويصيب المجتمع بالانحلال، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٦).

العناية بالجسم:

ومن مظاهر الاهتمام بالجانب المادى: العناية بالجسم، والحفاظ عليه: من ناحية الصحة والسلامة، ومن ناحية النظافة والتجمّل، ومن ناحية القوة والمرونة.

ولأول مرة يسمع الناس فى جو الدين هذه الكلمة المعبرة: «إن لبدنك عليك

---

(١) رواه الترمذى (٢٧٤٤) وقال: حديث حسن، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم (١٣١) عن ابن مسعود.

حقا» قالها محمد عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه حين بالغ فى العبادة على حساب جسده، وواصل صيام النهار وقيام الليل، وتلاوة القرآن، فأراد الرسول الكريم أن يوقفه عند الحد الوسط، والمنهج الوسط، فقال له: «إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك (أى زوارك) عليك حقا»[1] أى فأعط كل ذى حق حقه.

وبهذا علمه الوسطية والموازنة بين الحقوق بعضها وبعض، ومنها حق جسده عليه، ومن حقه عليه: أن يطعمه إذا جاع، وأن يسقيه إذا ظمئ، وأن يريحه إذا تعب، وأن ينظفه إذا اتسخ، وأن يقويه إذا ضعف، وأن يداويه إذا مرض.

ومن توجيهاته ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»[2].

وقد حل مشكلة عويصة عند أهل الدين، وهى علاقة الدواء البشرى بالقدر الإلهى، فقد سئل عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: «هى من قدر الله»[3].

فما أصدق هذا الجواب وما أحكمه وما أروعه! فالذى قدر الداء، قدر الدواء، والناس يتصورون الأدواء والأمراض من قدر الله، ولا يتصورون أدويتها من قدر الله، فعلمهم: أن الكل بقدر الله، الداء بقدر الله، والدواء بقدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله.

ونصح الرسول بعض من اشتكى من فواده: أن يذهب إلى الحارث بن كلدة، الطبيب الثقفى المعروف، وقالوا: إنه لم يكن أسلم حينئذ، فدل على جواز العلاج عند غير المسلم ما دام مأمونا.

وقد شرع الإسلام رياضات متنوعة، لتقوية الجسم مثل السباحة والرماية، وركوب الخيل، وغيرها من ألعاب الفروسية.

وتعاليم الإسلام كلها: تحافظ على الجسم، من العبادات والطهارات، وتحريم المسكرات والمخدرات، وتناول كل ما يضر بالأجسام، إذ لا ضرر ولا ضرار.

---

(١) متفق عليه عن ابن عمرو.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٤) عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه الترمذى (٢٠٦٥) وابن ماجه (٣٤٣٧) عن أبى خزامة.

وهذا الاهتمام بالجسم انفرد به دين الإسلام، فى حين أن هناك ديانات وفلسفات، تقوم على فكرة تعذيب الجسم من أجل نقاء الروح، فقد يعذبه بالجوع أو بعدم النظافة، أو بتعريضه للأذى، أو بحرمانه من الطيبات، وهذا معروف عند البراهمة فى الهندوسية، وعند البوذية الأسيوية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهبانية المسيحية، وغيرها، وقد جاء الإسلام بالمنهج الوسط للأمة الوسط ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

موقف خطابنا الدينى:

على خطابنا الدينى: أن يدرك هذه الحقيقة، فى الجمع بين الروحانية والمادية، أو بين الدنيا والآخرة، ويجعل لكل منهما حقها بالقسطاس المستقيم، بلا طغيان ولا إخسار، كما هو المشاهد لدى الكثيرين من المتحدثين باسم الدين. وقد قال تعالى: ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان. إلا تطغوا فى الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾ (الرحمن:).

وأكثر ما يعاب على خطابنا الدينى: أنه جار على الجانب المادى، وأغفل حق الدنيا، وأهمية الدنيا للدين.

ولن ينتصر المسلمون دينيا، إذا لم ينتصروا دنيويا. لا بد أن يعمروا الأرض، ويكتشفوا قوانين الكون، ويسخروا المادة، لتكون فى خدمتهم وخدمة دعوتهم الربانية، وأهدافهم الأخلاقية، ورسالتهم الحضارية، التى اتسمت بالتكامل والتوازن، فجمعت بن العلم والإيمان، وبين الإبداع المادى والسمو الروحى والأخلاقى.

لابد للخطاب الدينى أن يصحح مفاهيم المسلمين المغلوطة، التى ورثوها من عهود التراجع والتخلف فى التاريخ الإسلامى، كالذين يفهمون (الإيمان بالقدر) على أنه (الجبر) وفقد الاختيار، ويفهمون (الزهد) على أنه ترك الدنيا بالكبة، ويفهمون (التوكل) على أنه اطراح الأسباب، وترك الأمور تجرى فى أعنتها، بلا تخطيط ولا تدبير ولا سعى، حتى ألف بعض الصوفية كتابا سماه: (التنوير فى إسقاط التدبير)! يعنى: لا تدبر أمرا لنفسك، ودع الله يدبر لك، فتبدبيره لك خير من تدبيرك لنفسك!

وهذا خلاف ما كان عليه الرسول والصحابة وسلف الأمة، ولو أنهم استجابوا لمثل هذه النزعة، ما أقاموا حضارتهم الشامخة، ولماذا أمر القرآن بالنظر والتفكر، والعمل والسعى والمشى فى مناكب الأرض، وابتغاء فضل الله فيها؟

لابد للخطاب الدينى: أن يعطى (البعد المادى) حقه، حتى ينهض المسلمون من تخلفهم، ويلحقوا بالعالم المتحضر، ويمتلكوا زمام القوة اقتصاديا وعسكريا وعلميا، حتى يحافظوا على سيادتهم وهويتهم ورسالتهم، ويرهبوا عدو الله وعدوهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (الأنفال: ٦٠). على أن يكون ذلك كله وسيلة لغاية أسمى وأعظم، وهى: أن يعرف الناس ربهم ويعبدوه حق عبادته، وأن يبذلوا جهودهم، لتكون كلمة الله هى العليا.

٤ ـ يعنى بالعبادات الشعائرية
ولا يُغفِل القيم الأخلاقية

الإسلام أكثر الأديان اهتماما بعبادة الله وحده:

ومن خصائص الخطاب الإسلامى: الدعوة إلى عبادة الله وحده، والمحافظة على العبادات الشعائرية، التى بنى عليها الإسلام، وغدت تعد (أركانه العملية) من الصلاة والصيام والحج والزكاة، يضاف إليها ما يقويها ويكملها من الذكر والدعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن. وهذه هى التى تغذى (الجانب الروحى) فى حياة الإنسان، وتصله بربه أبداً فى كل مكان، وكل زمان، وكل حال، وتجعله رطب اللسان بذكره، عامر القلب بحبه، ممتلئ الجوانح من خشيته.

وقد وضع الإسلام هنا من الشعائر العملية: ما يجعل المسلم وثيق الصلة بالله فى الخلوة والجلوة، فى الحضر والسفر، فى السلم والحرب، فى الصحة والمرض، فى الغنى والفقر. فقد فرض الإسلام عليه خمس صلوات فى اليوم والليلة، تجعله على موعد مع الله باستمرار، كلما مضت فترة من اليوم ناداه المنادى: أن حى على الصلاة، فيدع دنياه، ويخرج من عمله، ليقف بين يدى مولاه دقائق، يعبر فيها عن امتثال أمره، وابتغاء مثوبته، وشكر نعمته.

وقد أسلم أحد اللوردات من الإنجليز فى أوائل هذا القرن، فكان مما أعجبه واستلفت نظره فى الإسلام: أنه يجعل الإنسان موصولاً بالله على الدوام، على حين لا يكاد يتذكر المسيحى ربه إلا عندما يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد.

بل يرغِّب الإسلام المسلم أن يذكر الله فى كل مناسبة، عندما يأكل يقول: بسم

الله، وعندما يشبع يقول: الحمد لله، وعندما ينام يقول: باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه. وعندما يستيقظ يقول: الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور، وعندما يركب دابته أو سيارته يقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف: ١٣).

وعندما يسافر يقول: اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. حتى عندما يجامع زوجته، يقول: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا.

وهناك كتب أُلفت فى الأذكار والدعوات التى يقولها المسلم فى سائر أحواله.

العبادة المقبولة هى التى تزكى النفس:

ولكن الذى يهمنا أن نؤكده هنا: أن الإسلام لا يعنيه من هذه العبادات المفروضة والمسنونة مجرد (الطقوس) والأداء الشكلى للعبادة، بل المهم هو الروح التى تسرى فى العبادة - وهى روح الإخلاص لله والخشية من الله - وهى التى تمنحها القبول من الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: ٥).

إن العبادة المغشوشة، التى دخلها الرياء، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس: مردودة عند الله، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهه، وبهذا يكون المرء من المتقين، وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧).

يريد الإسلام العبادة الخالصة النقية، وهى وحدها التى تزكى النفس، وترقى بالروح، وتحقق الثمرات الأخلاقية المنوطة بها، والمرجوة منها. فقد شرع الإسلام هذه العبادات، لحكم وأسرار، منها: أن تؤتى أكلها فى صلاح النفس، وزكاتها بمكارم الأخلاق.

فالصلاة لها ثمرتها الأخلاقية، التى عبر عنها القرآن بصراحة: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٣).

فدل على أن المداومة على الصلاة هى التى تقاوم (الهلع) فى طبيعة الإنسان: الجزع عند الشر، والمنع والبخل عند الخير.

والزكاة لها ثمرتها، التى عبر عنها القرآن بقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة: ١٠٣). فكما أن للزكاة أثرها على آخذها، فى سد كفايته، أو قضاء غرمه، أو تخفيف معاناته، كذلك لها أثرها فى نفس معطيها حيث تطهره من رجس الأنانية، ومن داء الشح، وتنميه روحيا ونفسيا بالبذل والعطاء الذى يحببه إلى الله، ويحببه إلى الناس.

والصيام له ثمرته، التى عبر عنها القرآن بقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣). فالصيام المقبول هو الذى يجعل الإنسان على رجاء التقوى لله تعالى. حيث يقول سبحانه فى الحديث القدسى: «يدع طعامه من أجلى، ويدع شهوته من أجلى، ويدع زوجته من أجلى»[١].

والحج أيضاً له ثمرته، كما قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧). ويتحدث عن الضحايا التى تهدى إلى الكعبة فى الحج، بقوله: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج: ٣٧).

وهذه العبادات والشعائر الكبرى إذا لم تحقق ثمراتها الأخلاقية، دل ذلك على أن بها دخلاً وغشاً أفسد حقيقتها، وضيع ثمرتها. وفى هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[٢]. وقال: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» [٣] أى أنه أضاع فائدة صيامه والحكمة منه، حيث لم يتخل عن قول الزور والعمل به.

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث أبى هريرة، وأصله فى الصحيحين.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٣٤٨٨) ورواه بنحوه الطبرانى عن ابن عمر وأحمد والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة. المصدر السابق (٣٤٩٠).

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصوم عن أبى هريرة.

الأخلاق والفضائل من ثمرات الإيمان:

لقد اهتم الإسلام بالجانب الأخلاقى، واعتبره من ثمار الإيمان، بل من (شعب الإيمان). وجاء فى الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

وقد صنف الإمام البيهقى كتاباً كبيراً سماه (الجامع فى شعب الإيمان) فى بضعة عشر مجلداً، جعل فيه الفضائل الأخلاقية تحتل حيزاً غير قليل من شعب الإيمان، ودلل على ذلك بالقرآن والسنة.

وانظر إلى قوله عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(1).

وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(2). وقوله: «والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا»(3). وقوله: «ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه»(4).

وهذا المعنى - أن الأخلاق من شعب الإيمان - أكده القرآن الكريم حين جعل الفضائل الأخلاقية من صفات المؤمنين والمتقين وعباد الرحمن والأبرار وأولى الألباب، الذين يستحقون مثوبة الله تعالى ورضوانه ودخول جناته، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ١ - ٨) فوصفهم - مع الخشوع فى الصلاة وأداء الزكاة - بالإعراض عن اللغو والباطل، والعفة عن الزنى، ورعاية الأمانات والعهود. وكلها فضائل أخلاقية.

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة. (٢) متفق عليه عن أنس. (٣) رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس. صحيح الجامع الصغير (٥٣٨٢)

كما وصف أولى الألباب الذين رضى الله عنهم وجعل لهم عقبى الدار بأنهم ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٠ ـ ٢٢).

وكذلك وصف القرآن (عباد الرحمن) بجملة صفات أخلاقية (الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. . . . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما. . . . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما. . . .). وكذلك وصف الأبرار فى سورة (الإنسان).

وإذا كانت الفضائل الأخلاقية من أوصاف المؤمنين الأساسية، فإن أضدادها من الرذائل من صفات الكافرين، أو خصال المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النحل: ١٠٥) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عدهم فى كل مرة وهم لا يتقون﴾ (الأنفال: ٢٢، ٢٣) وفى الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[1]، «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[2] وفى بعض الروايات: «كان منافقاً خالصاً، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

شمول الأخلاق الإسلامية:

والأخلاق الإسلامية: أخلاق شاملة، تشمل:

١ ـ الأخلاق العلمية: من الأمانة والموضوعية، والإذعان للحق، وإنصاف الغير، والاعتراف بالخطأ، والتحرر من التقليد والعصبية، والتماس الحكمة من أى وعاء خرجت. . . إلخ.

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة. اللؤلؤ والمرجان (٣٨).
(٢) متفق عليه عن ابن عمر اللؤلؤ والمرجان (٣٧).

٢ـ والأخلاق الفردية: من الحياء والتواضع، وعزة النفس، والقناعة، والرضا ورعاية الوقت، والصبر على نوازل الدهر.

٣ـ الأخلاق الأسرية: من المودة بين الزوجين ورعاية كل منهما لحق صاحبه، وحفظ الأسرار العائلية، والتعاون فى السراء والضراء، وصبر كل من الزوجين على صاحبه، والعطف على الأولاد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإيتاء ذى القربى (الأسرة الموسّعة).

٤ـ الأخلاق الاجتماعية: من العدل والإحسان، والرحمة بالإنسان والحيوان، والبذل والتضحية، والصدق والأمانة، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، والتعاون على البر والتقوى، ورعاية النظام والنظافة، والرفق بالإنسان والبيئة.

٥ـ الأخلاق السياسية: من النصيحة فى الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والطاعة فى المعروف، وكلمة الحق عند السلطان الجائر، واستشارة أهل الحل والعقد، والنزول على رأيهم، والإشارة على ولى الأمر، بما يرى أنه الحق، والعدل فى الرعية، والقسمة بالسوية، وأخذ المال من حله، وإنفاقه فى حقه، وعدم إمساكه عن حقه، وصيانة حرمات الأفراد: من الدم والعرض والمال، ورعاية حقوق الإنسان، والتسامح مع المخالفين، والبر والقسط معهم وإحياء روح الجهاد دفاعاً عن كرامة الأمة ومقدساتها.

٦- الأخلاق الاقتصادية: من عمارة الأرض، وإحياء الموات، والتعبد لله بالزراعة والصناعة والتجارة، والصدق فى التعامل، والبعد عن الغش والاحتكار والربا، واجتناب الإسراف والتقتير، والمحافظة على مال اليتيم والأموال العامة (الأوقاف وأموال الدولة) وتحريم الترف ومظاهره، وتحريم الكنز.

وبهذا نرى الأخلاق الإسلامية تشمل الحياة كلها، فلا انفصال فى الإسلام بين العلم والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق. بل كلها يجب أن تسير فى إطار الضوابط الأخلاقية، ولا تحيد عنها.

عموم الأخلاق فى الإسلام:

وإذا كانت الأخلاق فى الإسلام شاملة، فهى كذلك عامة، لا تقتصر على المسلمين وحدهم، ولا على العرب وحدهم، بل هى تعم الناس جميعاً. المسلم وغير المسلم، فالعدل مطلوب ومفروض للمسلم وغير المسلم، والرحمة مطلوبة بالمسلم وغير المسلم، والوفاء مطلوب للمسلم وغير المسلم، وكل الفضائل يجب أن تكون مع الناس جميعاً، ومثلها الرذائل لا تتجزأ، فالكذب حرام مع الجميع، والخيانة محرمة مع الجميع، والغدر محرم مع الجميع.

بل إن بعض الفضائل لتشمل الكائنات كلها مثل (الإحسان) فالمطلوب: الإحسان بالإنسان، والإحسان بالحيوان، والإحسان بالنبات، والإحسان بالأرض والماء والهواء وغيرها من مقومات البيئة، وبهذا سبق الإسلام دعاة حماية البيئة[1]، وأحزاب الخضر بقرون، منذ قرر القرآن ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٨٥) وقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[2]، وقال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[3].

ولا يقبل الإسلام الفلسفة القائلة: الغاية تبرر الوسيلة، بل لا بد من شرف الغاية، وطهر الوسيلة معاً. ولا يجيز الإسلام للمسلم أن يقبل الرشوة أو يأكل الربا، أو يغش تجارته، ثم يبنى مما كسب مسجداً، أو يقيم مشروعاً خيرياً، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب.

والمثل الأخلاقى الأعلى لدى المسلمين هو: رسولهم محمد ﷺ، الذى أدبه الله فأحسن تأديبه، وعلّمه فأتم تعليمه، وآتاه الكتاب والحكمة، وعصمه من الآثام والرذائل، ونصبه أسوة حسنة للناس، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١) وكذا أثنى عليه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤) ووصفته عائشة فقالت: «كان خلقه القرآن»[4]. أى أن الأخلاق التى جاء بها القرآن تتجسد فيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: كتابنا (رعاية البيئة فى شريعة الإسلام) طبعة دار الشروق بالقاهرة.

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود.

(٣) رواه مسلم عن شداد بن أوس.

(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة صحيح الجامع الصغير (٤٨١١).

موقف خطابنا الدينى:

من هنا كان واجبا على خطابنا الدينى المعاصر: أن يركز على الجانب الأخلاقى، الذى أصابه الخلل ـ وربما العطب ـ فى حياة المسلمين.

ينبغى أن يعلم الناس: أن الأخلاق فريضة دينية، وضرورة عملية، فلا يستطيع الفرد أن ينجح أو يسعد أو يحقق هدفا بغير أخلاق وفضائل تمده بالقوة، وتحميه من الانهيار. لا بد له من الصبر وقوة الإرادة والعفة والشجاعة والصدق والأمانة والتضحية وغيرها من الفضائل، لتسنده فى سيرته، حتى يحقق أحلامه. وقد قال شوقى:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم

ولا تستطيع أمة من الأمم أن تحافظ على كيانها، وتحمى هويتها، وتؤدى رسالتها، إلا بالأخلاق، فهى سياج الأمم، فإذا انكسر السياج تعرضت الأمة للخطر.

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا!

القوانين وحدها لا تحمى الأمم من الانحراف والضياع. ولكن لابد لها من ضمائر حية تحرس القوانين.

إن الذى يصلى ويصوم يحج ويعتمر، ولكنه ـ مع هذا ـ لا يملك أخلاقا فاضلة: لا تنفعه عباداته، ولا صلاته وصيامه، انظر إلى قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ (الماعون: ١ ـ ٧).

بينت هذه السورة: أن القسوة على اليتيم، وإهمال أمر المسكين، ليس من شأن الإنسان المؤمن، بل هو شأن المكذب بالدين. وانذرت بالويل ذلك النوع من المصلين، الذين لا يحافظون على صلاتهم، بل يتشاغلون عنها حتى يضيع وقتها،

وهم أهل الرياء الذين يبخلون على جيرانهم، بالمساعدة فى أهون الأشياء التى يحتاج إليها الجيران بعضهم من بعض، ولهذا يمنعون الماعون.

الخطاب الدينى الموفق. هو الذى يحرص على الدعوة إلى إقامة الشعائر التعبدية، وهى حق الله علينا، الذى لا يجوز التفريط فيه، ولكن يجب عليه أن يدعو ويؤكد الدعوة إلى مكارم الأخلاق، التى هى الدليل على صدق الإيمان، وعلى قبول العبادة عند الله.

٥ ـ يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة، كما يدعو إلى إشاعة التسامح والحب

ومن خصائص خطابنا الإسلامى المنشود: أنه يغرس فى نفس المسلم: الاعتزاز بعقيدته، والمغالاة بها، والإعلان عنها فى عزة وفخار، باعتبارها عقيدة التوحيد الصافية من كل شوب، وباعتبارها العقيدة الشاملة والعقيدة الخاتمة. وباعتبار أن الله تعالى حفظ مصادرها من الضياع والنسيان، ومن التحريف والتبديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

والقرآن يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣) وقوله: (إننى من المسلمين) قول من يعتز بانتسابه إلى ملة الإسلام، وبانتمائه إلى خير أمة أخرجت للناس، فهى تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (النمل: ٧٩)، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٣، ٤٤) وهذا ما ظهر فى سيرته ﷺ، فقد ساومه المشركون، على أن يعطوه ما شاء من المال والجاه، ومن الشرف والملك، فجعل ذلك كله دبر أذنيه، وتحت قدميه، ولم يرد عليهم إلا بتلاوة القرآن الذى كان كافياً أن يوئسهم من كل هذه المحاولات.

ولما وسطت قريش عمه أبا طالب أن يقنع ابن أخيه بالعدول عما دعاهم إليه فعرض عليه أن يخفف من موقفه، وأن يلين مع قومه، وأن يقبل أنصاف الحلول، إشفاقاً على ابن أخيه، وخوفاً عليه من أذاهم، وأن يمسوه بسوء، فما كان منه عليه

الصلاة والسلام إلا أن قال له : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه» .

وهذا ما رأيناه عند الصحابة ، فقد كانوا يعتزون بإسلامهم ويغالون به إلى أقصى حد ، فيقول عمر بن الخطاب : نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمن طلب العز بغيره أذله الله .

ويقول ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس ، وقد سأله : من أنتم؟! فقال بكل اعتزاز : نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العبادة إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى ستعها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . فلخص له أهداف الإسلام الكبرى فى هذه الكلمات الموجزة .

وكان الصحابى من هؤلاء بعد أن هداه الله للإسلام ، يفتخر بانتمائه إليه ، لا بالانتماء إلى ربيعة أو مضر ، أو قيس أو تميم . فيقول شاعرهم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم!

وكان أحد علماء المسلمين يتغنى بقوله مناجياً ربه :

ومما زادنى شرفًا وعزًا ... وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك: يا عبادى ... وأن أرسلت أحمد لى نبيًّا

لا يساوم المسلم على دينه ، ولا يتهاون فيه بحال ، ولا يبيعه بملك المشرق والمغرب ، ولا يفرط فيه ، وإن نزلت به المحن ، ومسته البأساء والضراء ، وأحاط به الكرب من كل جانب ، موقناً بأن هذه سنة الله فى أصحاب الدعوات الربانية ، وحملة الرسالات الإلهية ، يربيهم الله بالامتحانات ، ويزكيهم بالابتلاءات ، حتى يخرجوا منها كالذهب الخالص ، بعد أن يدخل النار ، فهم يقولون : ﴿ لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة : ٥١) أو ما وصف الله به المؤمنين فى غزوة الأحزاب ، وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٢٢) .

الدعوة إلى التسامح مع المخالفين:

هذا الاعتزاز بالعقيدة الإسلامية، والاستمساك بعروتها الوثقى: لا يعنى التعصب ضد الآخرين، أو الإنكار لوجودهم، أو التنكر لحقوقهم، أو إضمار البغض والعداء لهم، بل يغرس الإسلام فى نفس المسلم ـ مع هذا الاعتزاز ـ التسامح مع المخالفين، وأكثر من ذلك أنه يدعو إلى حب الناس جميعا.

بل إننا نجد فى القرآن الكريم سورة اشتملت على غاية الاعتزاز، وغاية التسامح معاً، فى سياق واحد، وهى سورة (الكافرون). فقد نزلت لسبب معروف، وهو المساومات الشركية من قريش للنبى ﷺ، ليعبد آلهتهم مدة من الزمن، ويعبدوا إلهه مدة من الزمن، ليجرب كل واحد من الطرفين إله الآخر، وبعد ذلك يقرر ما يراه، فنزلت السورة بموقف صارم يرفض هذه المساومات، ويقطع هذه المفاوضات، ويحسم الأمر بما لا يدع مجالاً لتردد أو شك، أو تساهل فى قضية القضايا، وهى التوحيد. فرفضت السورة قبول عبادة غير الله بصورة جازمة، فى الحاضر وفى المستقبل، وعلى أى وضع أو حال. فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. فالسورة كلها تجسد غاية التمسك والاعتزاز، وآخر آية منها تمثل التسامح الكريم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لكل دينه الذى يتدين به، ويسأل عنه أمام الله والناس، ويتحمل مسئوليته فى الدنيا والآخرة.

الأساس العقائدى والفكرى للتسامح الإسلامى:

والأساس الفكرى والعقدى لتسامح المسلمين مع مخالفيهم، يتمثل فى عدة عناصر أساسية، تكون الفلسفة المتسامحة مع الآخرين:

الأول: أن المسلم يعتقد من قراءته لكتاب الله: أن اختلاف الناس فى الدين، واقع بمشيئة الله تعالى، التى لا تنفصل عن حكمته، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

(يونس: ٩٩)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩) وغير ذلك من الآيات.

والمسلم يسلِّم لمشيئة الله تعالى، لأنه لن يستطيع معارضتها، فهى نافذة لا محالة، ثم إنه لن ينظم الكون أفضل مما نظمه خالقه عز وجل.

والثانى: أن حساب الناس على كفرهم إذا كفروا، وعلى ضلالهم إذا ضلوا، ليس فى هذه الدنيا، وإنما هو فى يوم الفصل، أو يوم الحساب، الذى توفى فيه كل نفس ما كسبت، وتجزى بما عملت، من خير أو شر. والذى يحاسب الناس فى هذا اليوم، أو تلك الدار: إنما هو خالقهم الذى يعلم سرهم ونجواهم، وما تخفى صدورهم، ويعلم المعذور منهم من غير المعذور، ويعلم من كفر منهم عجزاً وجهلاً، ومن كفر عناداً واستكباراً من بعد ما تبين له الحق.

وهذا ما يقرره القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ١٧).

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٨، ٦٩).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣).

كما أمر الله رسوله أن يقول لمخالفيه: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).

العنصر الثالث: أن المسلم مأمور من ربه أن يعدل مع الناس جميعاً، ولا يجوز أن يحمله شنآن قوم - أى شدة بغضهم له أو بغضه لهم - أن يحيد عن منهج العدل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

وقد ذكرت كتب التفسير : أن الله تعالى أنزل تسع آيات فى سورة النساء تدافع عن يهودى اتهم ظلماً بسرقة هو برىء منها، وكان الجانى الحقيقى أحد المسلمين، الذى اجتهد أهله وذووه أن يدفعوا الرسول ليخاصم عنه وعنهم. فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧).

الرابع: أن الإسلام يكرم الإنسان لمحض إنسانيته وآدميته قبل كل شىء، سواء كان مسلماً أم غير مسلم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وقد روى البخارى عن جابر: أن النبى عليه الصلاة والسلام مروا عليه بجنازة فقام لها واقفاً فقالوا له: يا رسول الله إنها جنازة يهودى! فقال: «أليست نفساً؟».

فما أروع موقفه ﷺ، وما أروع تعليله! فقد أعلمهم أن النفس الإنسانية ـ من حيث هى نفس ـ تستحق الاحترام والتكريم.

ولقد رأيناه عليه السلام ينهى عن التمثيل بجثث المشركين فى الحرب، كما روى مسلم فى صحيحه من حديث بريدة «ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا» برغم أنهم مشركون، وأنهم معادون مقاتلون، فهو لا يجيز الانتقام منهم بتشويه جثثهم بعد موتهم، فلا يجوز أن يُعاقب الإنسان بعد موته.

دستور العلاقة مع غير المسلمين:

ولقد ذكرت سورة الممتحنة آيتين تعدان بمثابة دستور للعلاقة مع غير المسلمين، وذلك بحسب موقفهم من المسلمين، مسالمة أو محاربة، يقول تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة: ٨، ٩).

ومن المعروف أن هاتين الآيتين من سورة الممتحنة إنما نزلتا أساساً فى شأن المشركين الوثنيين. أما أهل الكتاب فينظر إليهم الإسلام نظرة خاصة، باعتبارهم

أهل دين سماوى فى الأصل، يشاركون المسلمين فى الإيمان بالألوهية، والإيمان بالنبوة، والإيمان بالآخرة، وفى عبادة الله تعالى، وفى الإيمان بقدسية القيم الأخلاقية. ولهذا يخصهم بهذا النداء الموحى بالإيناس والتقريب (يا أهل الكتاب) كما يثنى على كتبهم ورسلهم.

وأكثر من ذلك: أنه أجاز مصاهرتهم، فأباح للمسلم أن يتزوج كتابية، فتصبح شريكة حياته، وأم أولاده، ويصبح أهلها أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وتصبح لهم حقوق ذوى القربى وهذه قمة فى التسامح لم يسمح بها كثير من الأديان مع مخالفيهم.

الدعوة إلى الحب:

ومما ينبغى أن يتبناه الخطاب الإسلامى فى عصر العولمة: الدعوة إلى إشاعة الحب بين الناس، وتحرير الناس من دعاوى الكراهية والحقد والحسد والبغضاء، وهى التى سماها الرسول (داء الأمم)[1]. وهو داء يفتك بالعلاقات الإنسانية، أكثر مما تفتك الأمراض والأوبئة القتالة بالأجسام.

إن حقيقة الدين: دعوة إلى الحب فى كل مجال، وعلى كل صعيد:

أول الحب وأعمقه وأعظمه، هو: حب الله تعالى، مصدر كل النعم، وواهب كل الخير ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣)، ومن حق الإنسان - بل من واجبه - أن يحب من أحسن إليه، فالإنسان أسير الإحسان. فكيف بمن غمره فضله وإحسانه من قرنه إلى قدمه، حتى من قبل أن يولد، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؟

ثم هو يحب الله تعالى، لأنه مصدر كل جمال وكمال، فكل ما نراه فى الكون من إبداع وحسن وإتقان، فهو من الله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧)، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) ولذا جاء فى الحديث الصحيح: «إن الله جميل يحب الجمال» رواه مسلم.

---

(١) إشارة إلى الحديث النبوى: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هى الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» وقد رواه البزار عن الزبير بإسناد جيد، كما قال المنذرى فى الترغيب، والهيثمى فى (مجمع الزوائد) ٨: ٣٠.

وهو كما يحب الله تعالى، يحب الطبيعة التى خلقها الله تعالى، وسخرها لخدمة الإنسان، ومنفعة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

فإذا كان الغربى ينظر إلى الطبيعة وكأنها عدو يحاربه، ويريد أن ينتصر عليه، ولذلك يعبرون عن الانتصارات العلمية بـ(قهر الطبيعة) فالمسلم يشعر بالود للطبيعة الحنون المسخرة له من ربه.

وأظهر دليل على ذلك هذا الحديث النبوى المعبر، الذى قال فيه النبى ﷺ عن جبل أحد، حينما لاح له، وهو قادم من سفر: «هذا أحد، جبل يحبنا ونحبه». ولم يكتف بحبه للجبل، حتى أعلن أن الجبل نفسه يحبهم، كأن له قلبا يخفق بالمشاعر.

وأهم من ذلك: حب الناس، كل الناس، حب الخير للناس، حب الهداية للناس، حب السعادة للناس، حب السلامة للناس، حب الرخاء والعافية للناس.

فهو يحب المسلمين، لأنهم إخوانه فى العقيدة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وفى الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

وهو يحب غير المسلمين ما داموا مسالمين له، ويتمنى لهم كل خير، ويدعو الله ليهديهم إلى سعادة الآخرة والأولى. وقد طلب من النبى ﷺ: أن يدعو على قومه وقد آذوه، فأبى ذلك، وقال: «إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له. اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون»[٢].

وما فى الإنسان من نزعة فطرية للكراهية والعداوة، فإن الإسلام يوجهها إلى كراهة الشر والفساد، وعداوة من يمثل الشر ويجسده ويتزعم الدعوة إليه، وهو الشيطان اللعين[٣]، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦).

---

(١) متفق عليه عن أنس.

(٢) رواه البخارى (٢٩٩٢) ومسلم (٣٣٥٢) عن عائشة.

(٣) لمزيد من التفصيل حول دعوة الإسلام إلى الحب: يراجع: فصل (الإيمان والحب) من كتابنا (الإيمان والحياة) طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت.

والإسلام لم ينتشر فى العالم بالسيف كما قال من قال، بل انتشر بحب المسلمين للناس، وحب الناس لهم، أحبوهم فأحبوا الإسلام بحبهم، فدخلوا فى دين الله أفواجا.

والذين يتوهمون أن المسلم يجب أن يبغض كل كافر: مخطئون، لإن الإسلام إنما حرم موادة من (حاد الله ورسوله) أى حارب الله ورسوله وعاداهما، أما الكافر فلا مانع من مودته إذا كان قريبا أو جارا أو زميلا أو صاحبا غير معاد للمسلمين ولا محارب للإسلام. وحسبك أن الإسلام أجاز أن تكون زوجة المسلم وشريكة حياته كتابية غير مسلمة. وأساس الحياة الزوجية: المودة والرحمة، كما صورها القرآن. وهل يتصور أن لا يود المرء زوجته، أو الولد أمه؟ أو الحفيد جده وجدته؟! وابن الأخت حاله أو خالته؟ وأين صلة الأرحام إذن وحق ذوى القربى؟

وقال الإمام الشهيد حسن البنا: سنغزو الناس بالحب لا بالسيف!

موقف خطابنا الدينى:

مهمة الخطاب الدينى اليوم: أن يحرص على ترسيخ هذه النزعة الوسيطية، وأن يرعى التوازن المنشود بين الدعوة إلى الاعتزاز بالعقيدة والرسالة من جانب، والدعوة إلى التسامح والحب من جانب آخر، وليحذر الخطاب الدينى أن ينساق مع المغْلَقين من دعاة التعصب، أو دعاة الكراهية، الذين يريدون أن يعادوا البشرية كلها، حتى من يخالفهم من المسلمين فى رأيهم، يضمرون له العداوة والبغضاء، ويتقربون إلى الله بذلك.

ليس معنى هذا: أن نفرط فى عقيدتنا أو نساوم عليها، بل نفديها بأرواحنا وأموالنا، ولا نضنّ عليها بكل ما تملك. ومع هذا ـ من أجل هذه العقيدة وبوحْيها ـ نرحب بالتسامح مع مخالفنا، والحوار معهم، وأن نضع يدنا فى أيديهم، غايتنا الخير المشترك للجميع. وإنما لكل امرئ ما نوى.

٦ـ يغرى بالمثال ولا يتجاهل الواقع

ومن خصائص الخطاب الإسلامى: أنه يغرى بالمثل العليا التى ينشدها الإسلام للإنسان، ولكنه لا يتجاهل الواقع الذى يعيشه الناس فى حياتهم، ويضطرون للتعامل معه فى مصبحهم وممساهم.

فالإسلام ينشد الإنسان الفرد المسلم المثالى، والأسرة المسلمة المثالية، والمجتمع المسلم المثالى، والأمة المسلمة المثالية، والدولة المسلمة المثالية، والعالم الإنسانى المثالى. ولكنه ـ مع هذه الدعوة إلى المثالية ـ لا ينسى الواقع الذى يحياه الناس ويهبطون إليه أفراداً وأسراً وجماعات وأمماً ودولاً. فهو يعالج هذا الواقع نظرياً، ويعالجه عملياً، يعترف به ولكنه يحاول أن يرقى بالإنسان، ليعلو عليه بإيمانه وأخلاقه ومثله وأهدافه الكبرى فى الحياة.

ينشد الإسلام الفرد المثالى: الذى يجتنب المحرمات، ويؤدى الواجبات، ويرغب فى التطوعات. الإنسان الحى الضمير، المرهف الشعور، المتوازن العاطفة، القوى الإرادة، المستنير العقل، المستقيم الخلق، السليم الجسم، الصالح فى نفسه، المصلح لغيره، الغيور على دينه، النافع لمجتمعه، المدافع عن وطنه، الذائد عن أمته، العابد لربه، المحسن إلى خلقه، العامر لأرضه، القائم بخلافته، الحامل لدعوته. إنه الإنسان المثالى الذى تحدثت عنه آيات القرآن الكريم، ووصفته لنا فأحسنت الوصف، حينما تحدثت عن المؤمنين والمتقين والمحسنين والأبرار وأولى الألباب وعباد الرحمن.

ويكفى أن تقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال: ٢ ـ ٤).

وقوله تعالى في وصف عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ . . . الآيات.

وقوله فى سورة الذاريات في وصف المتقين المحسنين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

وفي سورة الإنسان يصف الأبرار بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

كما نقرأ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «ما تقرب إليّ عبدى بأفضل مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به . . .»(١).

ومع هذا رأينا الإنسان كثيراً ما ينزل عن هذه الدرجات العلا، ويسقط فى أوحال الخطيئة، فيعصى ربه سبحانه، فيترك المأمور، ويفعل المحظور، ذلك أن الإنسان ليس مخلوقاً مطهرا كالملائكة، ولا معصوماً كالأنبياء، ولكنه مخلوق مزدوج الطبيعة: فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فأحياناً تنتصر الروح، فتستجيب لباعث الدين، وأحياناً ينتصر الطين، فيستجيب لباعث الهوى.

واعترافاً بطبيعة الإنسان وضعفه، واستعداده للعلو والهبوط، وللتزكية والتدسية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠). فالنفس البشرية مستعدة للفجور استعدادها للتقوى، بل ربما كان استعدادها للفجور أقوى، ولهذا قدّم فى الآية. والمدار هنا على جهد الإنسان، فإما أن يزكى نفسه ويجاهدها فيكسب الفلاح والفوز، وإما أن يدسيها ويدعها لشهواتها، فلا يجنى غير الخسار والخيبة.

ومن أجل ذلك قسم القرآن أصناف الناس فى الأمة التى اصطفاها الله من

---

(١) رواه البخارى من حديث أبى هريرة.

عباده، والتي أورثها الكتاب، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣٢).

فهؤلاء هم أصناف الأمة التي وصفها الله بما وصفها به:

١ ـ الظالم لنفسه، وهو الذي يقصر في أداء الواجبات، ويرتكب بعض المحرمات.

٢ ـ المقتصد، وهو الذي يؤدي الواجبات، ولا يقترف المحرمات، ولا يزيد على ذلك.

٣ ـ السابق بالخيرات، وهو الذي يزيد على فعل الواجبات، بفعل المستحبات، ويزيد على ترك المحرمات، بترك الشبهات والمكروهات. وقد يرتقي فيدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس.

وهكذا رأينا (الظالم لنفسه) جزءاً من الأمة، وعضواً من أعضائها، فهي ليست أمة من الملائكة، بل هي أمة من البشر الذي شأنه أن يطيع ويعصي، ويصيب ويخطئ.

ولا عجب أن يخطئ ابن آدم ويعصي، فقد أخطأ أبوه آدم من قبل، فقد أسكنه الله وزوجه الجنة، وأمرهما أن يأكلا من ثمارها رغداً حيث شاءا، إلا شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها، فما زال الشيطان يدليهما بغرور، ويزين لهما الأكل منها، حتى وقعا في المحظور ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١).

ولكن الله لم يدع آدم سجين عثرته، ورهين معصيته، فقد آتاه سبباً يمكنه به أن يغتسل من ذنبه، وأن يتطهر من آثاره، وهو (التوبة) ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١٢٢)، ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧).

وهكذا أورث الله بني آدم هذين الأمرين: الوقوع في الخطيئة، وغسلها بالتوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١).

بل شرع الإسلام للإنسان (أنهاراً) يغتسل فيها من درن المعصية: مثل الحسنات التي تذهب السيئات: من الوضوء والصلاة والصدقة والصيام والحج والعمرة

والذكر والدعاء. وحسبنا قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود: ١١٤).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[١].

كما شرع التوبة والاستغفار، فالتوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وفى الحديث «كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون المستغفرون»[٢].

وينشد الإسلام الأسرة المسلمة التى تؤسس على السكون والمودة والرحمة، وتقوم على المعاشرة بالمعروف، وعلى قيام كل من الزوجين بواجبه، وتمتعه بحقه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

كما تقوم الأسرة على مسئولية الوالدين عن رعاية أولادهما وحسن تربيتهم، وعلى بر الأولاد لوالديهم، وحبهم لإخوانهم وأخواتهم، وتعاونهم وتناصرهم فيما بينهم بالمعروف، وصلة الأرحام، وإيتاء ذى القربى. إن الأسرة فى الإسلام هى الأسرة الممتدة الموسعة، التى تشمل الآباء والأجداد، والأمهات والجدات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وذرياتهم.

ومع هذا يعلم الإسلام أن من الأزواج من لا يوفق مع زوجه، فلم يشأ أن يفرض عليهما الحياة تحت سقف واحد، وكلاهما يبغض صاحبه، ولا يطيق عشرته، ولهذا شرع الطلاق عند تعذر الوفاق، وإن كان لا يحبذه إلا فى أضيق نطاق «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[٣]. وقرر للزوجة حق (الخلع) من زوجها إذا لم تطق هي عشرته، فتفدي نفسها منه، بدفعها له ما بذل لها من مهر ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

كما قد يتزوج الرجل امرأة لا تنجب وهو تواق إلى الأولاد، فلم يمنعه الإسلام أن يبقى عليها وفاء لعشرتها معه، ويتزوج أخرى رجاء أن يجنب منها.

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أنس. انظر: صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٣) رواه أبو داود عن ابن عمر باب كراهية الطلاق. حديث (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)، انظر كلامنا عنه فى: (فتاوى معاصرة) الجزء الأول. طبعة دار القلم.

وقد تمرض امرأته ويطول عليها المرض، وهو لا يريد طلاقها، ويريد أن يتزوج أخرى فى الحلال، توفر له ما عجزت عنه زوجته المريضة.

وقد يكون الرجل قوى الشهوة، وزوجته تطول عندها مدة الحيض، ولا يريد أن يرتكب الحرام، أو يفكر فيه، فيتزوج أخرى تلبى له حاجته.

ومن هنا نرى شرعية الإسلام لتعدد الزوجات من دلائل واقعيته، والغربيون يمارسون التعدد بالعشرات فى حياة أحدهم، ولكن بلا التزام أخلاقى ولا قانونى، كما هو شأن الإسلام. ومع هذا يشنعون على الإسلام!

والإسلام يريد مجتمعاً مثالياً خالياً من الجرائم، ولكن جرت سنه الله فى خلقه أن يظلم الناس بعضهم بعضاً، وأن يجور بعضهم على بعض، لهذا شرع الإسلام القصاص والحدود، ليردع الناس عن الانتكاس فى الجرائم والاستمرار فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩)وقال عز وجل: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨).

ويوم كانت البشرية أسرة واحدة، رأينا الأخ الشرير يعتدى على أخيه الطيب الخير بغير ذنب جناه، إلا أن الله تقبّل قربان هذا، ولم يتقبل قربان ذلك ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (المائدة: ٣٠).

هذا وقع قبل أن يتكون (المجتمع) الذى يؤثر فى أفكار الأفراد وسلوكهم، وإنما هى نزعات النفس البشرية، التى كثيراً ما يغلب عليها الظلم والجهل ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وفى العلاقة بين الأمة بعضها ببعض، وبين الحكام والمحكومين، كثيراً ما نجد الشريعة الإسلامية، تنزل بالإنسان من (المثل الأعلى) إلى (الواقع الأدنى) نزولاً على حكم الأمر الواقع المبين.

فالإسلام يريد فى رجال إدارته (القوى الأمين) كما جاء فى قوله تعالى على لسان ابنة الشيخ الكبير فى قصة موسى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦). وكما جاء على لسان يوسف عليه السلام إذ قال لملك مصر:

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٥) فالعلم يجسد القوة، والحفظ يجسد الأمانة.

ومع هذا قال الفقهاء: إذا لم يجد القوى الأمين، أخذ أفضل الموجود، وإن لم يكن قوياً ولا أميناً، وإن كان الواجب ـ كما قال ابن تيمية ـ العمل على إصلاح الأحوال، حتى يوجد القوى الأمين.

وقال العلماء يجب أن يكون إمام المسلمين (ولى أمرهم) وقاضى المسلمين: عالماً بلغ مرتبة الاجتهاد فى استنباط الأحكام.

ولما كان هذا أمراً قد أصبح مفقوداً أو شبه مفقود فى الأزمنة الأخيرة، قالوا: يؤخذ أفضل الموجود، وإن لم يكن مجتهداً حتى لا تتعطل الأحكام، ولا تبقى الأمة بلا إمام ولا قضاة.

ويتمنى الإسلام عالماً يسوده السلام والأمان، ويعيش الناس فيه فى ظل التعارف والوئام، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

فقد بدأ الإسلام دعوته مسالماً، داعياً الناس إلى توحيد الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، فوقف عباد الأوثان يصدون عن سبيله، ويفتنون من دخل فى الدين بألوان الأذى والعذاب، حتى سقط منهم شهداء تحت نير العذاب، وحتى حوصروا وقوطعوا مقاطعة اجتماعية واقتصادية، حتى أكلوا أوراق الشجر من الجوع.

واضطر الإسلام فى النهاية أن يشهر السيف دفاعاً عن نفسه، فى وجه السيوف التى رفعت من أول يوم تريد أن تقطع عنقه، وتجهز عليه. كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٦) وقال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠).

والقرآن يشير بهذه الجملة الأخيرة إلى تقرير سنة من سنن الله تعالى فى المجتمعات، وهى: (سنة التدافع) التى يهيئ الله فيها أناساً من خلقه يدفعون عن أناس آخرين، لا حول لهم ولا قوة، دون أن يوكلوهم فى الدفاع عنهم.

ومن واقعية الإسلام: أنه اعترف بالضرورات التى تنزل بالإنسان، فاباح بها المحظورات، وقررت ذلك أربع آيات فى كتاب الله، بعد ذكر الأطعمة المحرمة ثم قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣).

وبهذا قرر الاستثناء من الأحكام العامة، نزولا على حكم الضرورات، أو الحاجات التى تنزل منزلة الضرورات.

موقف الخطاب الدينى:

إن الخطاب الدينى الموفق هو الذى يراعى واقع الناس الذى يضغط عليهم، وضعفهم أمام هذا الواقع، ويراعى ضرورات الناس التى تباح بها المحظورات، وحاجاتهم التى كثيرا ما تنزل مزلة الضررات، ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة مقربون، بل يعاملهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، تدفعهم الغرائز، وتغْريهم الشهوات، ويوسوس لهم الشيطان، فيعثرن ويسقطون، ومع هذا لا ينبغى أن يقنطوا من رحمة الله.

كما لا يليق بالخطاب الدينى أن يخضع للواقع المنحرف، ويحاول أن يبرره بمستندات شرعية مزورة أو محرفة، بل يجب أن يعمل دائما على معالجه هذا الواقع بما يناسبه من دواء، حتى تتجاوزه الأمة، وتعلو عليه.

يجب على الخطاب الدينى أن يحافظ على التوازن، فيعترف بالواقع على ما به، ولكن على الأمة دائما أن تتطلع إلى المثل الأعلى، وتجتهد أن ترقى إليه، ولو بالتدرج. ومن سار على الدرب وصل.

٧ـ يدعو إلى الجد والاستقامة
ولا ينسى اللهو والترويح

ومن خصائص الخطاب الإسلامى المنشود فى عصر العولمة : أنه يدعو إلى الجد والطهارة والاستقامة فى الحياة ، وفى الوقت نفسه لا ينسى اللهو والترويح عن الأنفس .

أما الجد والطهارة والاستقامة على الطريق القويم ، وتربية الأمة عامة ، وشبابها خاصة ، على حياة العفة والفضيلة والإحصان ، وتحرى الحلال ، والبعد عن الحرام ، وتجنب حياة الترف والميوعة ـ ناهيك بحياة التحلل والتسيب ـ فهذا هو النهج الذى جاء به الإسلام ، لتكوين الإنسان الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح .

إن (الطهارة) ليست مجرد شرط من شروط صحة الصلاة للإنسان المسلم ، ولكنها شعار لحياته كلها : الطهارة فى المأكل ، والطهارة فى الملبس ، والطهارة فى المسكن ، والطهارة فى القول ، والطهارة فى السلوك ، والطهارة فى المال ، والطهارة فى شئون الدنيا والدين ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

والاستقامة على الطريق هى المعبِّر العملى عن الإيمان ، ولهذا حين سأل أحد الصحابة النبى ﷺ : قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك : قال له : «قل : آمنت بالله ثم استقم»[1] .

وقد اقتبس النبى الكريم هذا الجواب من القرآن ، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

---

(١) رواه مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى (٣٨) وهو من أحاديث الأربعين النووية .

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠ : ٣٢).

ومقتضى هذه الاستقامة: أن يلتزم المسلم (الصراط المستقيم) الذى يدعو الله كل يوم أن يهديه إليه فى صلواته الخمس: سبع عشرة مرة، فضلا عن صلوات السنن والنوافل.

وهذا الصراط أو الطريق أو المنهج، قد رسمه القرآن ووضع أسسه وقواعده، وبينته السنة وفصلته، فلم يعد لأحد حجة أن يدعى أنه يجهله، فقد تركنا رسولنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فالحلال بيّن، والحرام بين، وما كان بينهما من مشتبهات يمكن أن يسأل عنها أهل العلم ليبينوها، وما بقى مشتبها على صاحبه، فالورع تركه «ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه»[1].

والمسلم الحق هو الذى يملك إرادة قوية، يقاوم بها الشهوات، ويستعلى بها على نداء الغرائز، وبمقدار انتصاره على هواه، تثبت حقيقة إيمانه، وبالتالى حقيقة إنسانيته.

إن الإيمان هو الذى يقوى إرادة المؤمن أمام وساوس الشيطان، ودواعى الهوى، فيجعله يرفض الحرام، وهو متاح له، لا يحول دونه حائل إلا خشية الله.

فقد تتاح للمرء صفقات يكسب فيها الملايين، من المال الحرام، من التجارة فى أغذية فاسدة، أو انتهى أمد صلاحيتها، أو أصابها التلوث أو الإشعاع، أو من خلال الغش فى البنيان، أو من خلال توريد أصناف أقل من المستوى، أو من خلال التعامل مع الأعداء، أو من خلال الرشا التى تدفع بالملايين باسم العمولات أو الهدايا.. ولكن المؤمن يرفض هذا كله، لأنه حرام، وهو لا يقبل أن يدخل جيبه أو خزانته درهم من حرام، أو يدخل فى بطنه - أو بطن أحد ممن يعوله - لقمة من حرام، فكل جسد نبت من حرام فالنار أولى به!

وقد تتاح للإنسان فرص لكسب جاه حرام، أو مجد حرام، أو منصب حرام فى

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

سبيل أن يتنازل عن مثله العليا، أو يسير فى ركاب الطغاة، أو يحنى رأسه للغزاة والسادة، أو يغض الطرف عما يفعله الكبار من سرقات ونهب وعبث بالأموال والحرمات. ولكن المؤمن يركل هذا كله بقدمه، ولا يسيل لعابه لهذا العرض الزائل، ويقول لأصحاب السلطان ما قاله سحرة فرعون لفرعون حين آمنوا بالله رب العالمين، رب موسى وهارون: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ (طه: ٧٢، ٧٣).

إنها الاستقامة، التى تفرض على صاحبها: أن يؤدى حق ربه، ويؤدى حق نفسه، ويؤدى حق أسرته، ويؤدى حق مجتمعه، ويؤدى حق أمته، فهو مع الله بالعبادة، ومع نفسه بالتزكية، ومع أسرته بحسن الرعاية والنفقة، ومع المجتمع بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، ومع أمته بالتضامن معها، والحرص على وحدتها، والدفاع عنها.

ومع هذا لا ينسى أنه بشر، له حاجات البشر، ومطالب البشر، ولهذا يتعب كما يتعب البشر، ويمل كما يمل البشر، ومن حقه أن يستريح إذا تعب، وأن يروح نفسه إذا مل، وأن ينوع حياته بين الجد واللهو، حتى يستطيع أن يواصل السير، ولا ينقطع من الإعياء والجهد فى منتصف الطريق، فلا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى.

ولهذا قال النبى ﷺ لحنظلة، حين اتهم نفسه بالنفاق، لأنه كان فى مجلس رسول الله ﷺ على حال من الرقة والخشوع والسمو الروحى، فلما رجع إلى بيته داعب امرأته، ولاعب أولاده، ونسى ما كان عليه، فظن ذلك نفاقا، ورجع يعدو إلى النبى ﷺ يشكو هذه الازدواجية، وهذا التناقض، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا حنظلة لو بقيتم على الحالة التى تكونون فيها عندى لصافحتكم الملائكة فى الطرقات، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة»[١]، أى كما نقول فى المثل: ساعة لقلبك، وساعة لربك.

وساعة القلب هذه مطلوبة للإعانة على ساعة الرب، فإن النفس البشرية لا تصبر على الحق المر، والجد الصارم باستمرار، ولهذا قال على - رضى الله عنه -: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمى!

---

(١) رواه مسلم.

ويقول: إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

ومن هنا كان الرسول الكريم يمزح ولا يقول إلا حقا، ويرى أصحابه يتمازحون ولا ينكر عليهم، ويعرف لكل قوم طريقتهم وأعرافهم، ويتيح لهم أن يمارسوا هواياتهم، كما سمح للحبشة أن يلعبوا بحرابهم فى مسجده فى يوم العيد، وهو يشجعهم ويقول لهم: (دونكم بنى أرفدة)، ويتيح لزوجه عائشة أن تنظر إليهم وهم يلعبون حتى تسأم، ولما هَمَّ عمر أن يرميهم بالحصى، لأنهم يرقصون بحرابهم فى المسجد النبوى قال له الرسول: دعهم يا عمر.

وغنت جاريتان فى بيت عائشة، والرسول عندها، ودخل أبو بكر، فوجدهما تغنيان فانتهرهما، وقال: أمزمور الشيطان فى بيت رسول الله؟ فقال الرسول: دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا. حتى تعلم يهود أن فى ديننا فسحة، وإنى بعثت بحنفية سمحة.

وأنكر على عائشة أن تزف عروس إلى عروسها بغير لهو وغناء، ولا سيما أن الزوج من الأنصار، وقال: هلا كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو.

وقد ذكرنا شروطا وضوابط للغناء المباح ـ بآله أو بغير آلة ـ من حيث المضمون، ومن حيث طريقة الأداء، ومن حيث الكم، ومن حيث سلامته من الاقتران بأشياء محرمة مثل الخمر أو الخلاعة والرقص، وغيرها، لا نريد الاطالة بذكرها فليراجعها من شاء فى كتبنا، وبخاصة كتاب (فقه الغناء والموسيقى فى ضوء القرآن والسنة)[1].

ويمكن أن يكون اللهو بممارسة بعض الرياضات كالسباحة والرماية وركوب الخيل، والمسابقة بينها، ونحو ذلك من ألعاب الفروسية.

وللناس أن يخترعوا من الألعاب والهوايات ما يشغل فراغهم، ويرفه عنهم[2]، ما لم يسرفوا فى ذلك، فإن الإسراف فى المباحات ممنوع، كما قال تعالى: ﴿ يا بَنِي

---

(١) فصلنا أحكام الغناء والموسيقى فى كتابنا (فقه الغناء والموسيقى) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والرسالة ببيروت، فليرجع إليه من يريد استيعاب الموضوع.

(٢) انظر ما كتبناه عن (اللعب) فى رسالتنا (الإسلام والفن) من رسائل ترشيد الصحوة، نشر مكتبةوهبة ـ والرسالة.

آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف : ٣١) .

بل الإسراف في العبادة ممنوع أيضا، لأنه لا يتم إلا على حساب حقوق أخر، وكما قال الحكيم : ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضيع .

ثم عليهم أن يلتزموا الحلال، ولا يتجاوزوه إلى الحرام، مثل اللعب بالقمار، فكل شيء دخله القمار، فهو حرام .

إن خطابنا الدينى يغلب عليه التزمت والتشدد فى قضية اللهو الترويح، وكثير من خطبائنا الدينيين يشددون على عباد الله فى قضية الغناء والموسيقى، فيحرمونهما تحريما باتّا، ولا سيما الموسيقى مثيرها وهادئها، وقد اعتمدوا فى ذلك على نصوص نقلوها، بعضها صحيح غير صحيح، وبعضها صحيح غير صريح، أى فى الدلالة على التحريم . ومن المعلوم أن الشرع يشدد فى مسألة (التحريم) فلا يجوز التحريم إلا بنص صحيح صريح، سالم من المعارضة، غير قابل للتأويل، حتى لا يقال للمحرّم : ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس : ٥٩) .

والواجب هو الموقف المتوازن من هذه القضية الخطيرة، فلا يسد الخطاب الدينى على الناس أبواب الحلال كلها، ويحرم عليهم ما أحل الله بغير بينة، كما لا يفتح الباب على مصراعيه للهو الحرام، والترفيه الذى لا ينضبط بشرع ولا أخلاق .

إن من الخطاب الدينى : ما يريد أن يجعل الحياة (مأتما) دائما، فلا يسمح لقلب أن يفرح، ولا لسن أن تضحك، ولا ولا ليد أن تصفق، ولا للسان أن يروى فكاهة أو دعابة، يريد أن يعيش المرء مهموما حزينا، وأن يلقى الناس عبوس الوجه، مقطب الجبين . وهذا ضد الفطرة، وضد الشرع معا .

وقد كان للرسول من يضحكه، وكان الرسول ﷺ من أفكه الناس، وقد رويت عنه ممازحات شتى لرجال ونساء من أصحابه، كما أقر أصحابه على مداعباتهم بعضهم مع بعض، ومنها ممازحات من الوزن الثقيل . ولا سيما من الصحابة المعروفين بمزاجهم الفكاهى (الكوميدى)[1] .

فلنتأسّ بالرسول وصحبه، ولندع هؤلاء الثقلاء الذين يريدون أن يفرضوا ثقلهم وشدتهم وضيق صدورهم على العالمين .

---

(١) راجع فتوانا عن (الدين والضحك) فى الجزء الثانى من كتابنا (فتاوى معاصرة) .

٨ـ يتبنى العالمية ولا يغفل المحلية

لا بد للخطاب الدينى فى عصرنا هذا ـ عصر العولمة ـ : أن يتبنى عالمية الدعوة والتوجه، وإن لم يغفل الجوانب المحلية والإقليمية، وهذا ما نادينا به وما زلنا، وذلك لسببين أساسيين :

أولهما : أن هذه هى طبيعة الدعوة الإسلامية، فهى ليست دعوة عربية، ولا دعوة شرقية، وليست دعوة عرقية ولا إقليمية بحال. بل هى دعوة (للعالمين).

أعلنتْ عن ذلك منذ فجرها فى مكة، وأتباعها قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فقال تعالى لرسوله فى سورة الأنبياء، وهى مكية ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ الآية : ١٠٧، وقال فى سورة الفرقان وهى مكية ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ الآية : ١، وفى سورة ص وهى مكية ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴾ وتكرر وصف القرآن فى أكثر من سورة مكية بأنه (ذكر للعالمين) أو (ذكرى للعالمين).

وفى سورة الأعراف ـ وهى مكية ـ أمر من الله لرسوله ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ الآية : ١٥٨.

وعدد الرسول الكريم خصائصه التى تميز بها على من قبله من الأنبياء، فكان منها «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» متفق عليه من حديث جابر.

وفى أول فرصة أتيحت لرسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية : وجه رسائله إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض القريبين من جزيرة العرب، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

وعالمية الإسلام من الثوابت اليقينية التى لا نزاع فيها .

والسبب الثانى : أن العزلة الآن لم تعد ممكنة ، لم يعد فى إمكان عالم أو داعية أن يغلق أبواب مسجده أو معهده على نفسه وعلى مصليه أو تلاميذه ، ويقول لهم ما يود أن يقوله دون أن يسمع به أحد .

فقد تقارب العالم وتقارب حتى أصبح شبه قرية واحدة ، وسماه بعضهم (قريتنا الكبرى) . وأنا أقول : إنه لم يعد قرية كبرى ، بل قرية صغرى . فإن القرية الكبرى لم يكن يعرف الناس فى شرقها ما يجرى فى غربها إلا بعد يوم أو أكثر ، أما العالم اليوم ، فنحن نعلم ما يحدث فيه بعد لحظات من وقوعه ، بل قد نتابع الحدث وهو يحدث فى مكانه لحظة بلحظة ، نتيجة لثورة الاتصالات الحالية .

فلهذا ينبغى علينا أن نعلم أن ما يقال على منبر فى قرية نائية فى إندونيسيا أو فى نيجيريا ، أو فى المغرب أو فى السودان : قد تتناقله وكالات الأنباء فى العالم ، وتذيعه فى أقطار الأرض كلها .

فى السنة الماضية كنا فى مؤتمر إسلامى كبير ، وقام أحد المتحدثين ، وقال كلاما على عكس اتجاه المؤتمر ، يدعو إلى التعصب لا التسامح ، والانغلاق لا الانفتاح ، ويقول : إنه لا يوجد دين غير الإسلام ، فالله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ (آل عمران : ١٩) ولا يوجد حوار بيننا وبين الآخرين ، إنما هى دعوتهم فقط إلى الإسلام .

وقلت لرئيس المؤتمر ، وكان يجلس بجانبى : إن كلام هذا الرجل خطير ، ويهدم كل ما نبنيه ، ويجب أن يُرد عليه . قال : إنه يقوله فيما بيننا .

قلت : وإن كان يقوله فيما بيننا ، فليس كلاما صحيحا . كيف يقول : لا يوجد دين آخر ، والله تعالى يقول للمشركين الوثنيين : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (الكافرون : ٦) ، ويخاطب أهل الكتاب فيقول : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** ﴾ (النساء : ١٧١) ويذم أهل الكفر ﴿ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا** ﴾ (الأعراف : ٥١) إلى اخره .

ثم كيف ينكر الحوار ، ونحن مأمورون به شرعا فى قوله تعالى : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (النحل : ١٢٥) .

ومن ناحية أخرى: لا يوجد شيء اسمه (فيما بيننا) فكل ما نقوله يعرف ويذاع على الناس.

ولا يقبل منطق الإسلام أن يكون لنا إسلامان: إسلام نتداوله بيننا ونكتمه عن الناس، وإسلام نعلنه على الملأ، ونواجه به العالم. إنما هو إسلام واحد، مصدره القرآن والسنة، نعمل به فى أنفسنا، وندعو إليه غيرنا، ونغالى به، ونباهى بإعلانه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣).

بين العولمة والعالمية:

ولابد لنا أن نميز بين معنى (العالمية) ومعنى (العولمة) فقد يلتبس المفهومان على كثير من الناس.

ولكن هناك فى الواقع فرق كبير بين مضمون (العالمية) الذى جاء به الإسلام، ومضمون (العولمة) التى يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية فى الإسلام تقوم على أساس تكريم بنى آدم جميعا ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فقد استخلفهم الله فى الأرض، وسخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض، جميعا منه. وكذلك على أساس المساواة بين الناس فى أصل الكرامة الإنسانية، وفى أصل التكليف والمسئولية، وأنهم جميعًا شركاء فى العبودية لله تعالى، وفى البنوّة لآدم، كما قال الرسوم الكريم أمام الجموع الحاشدة فى حجة الوداع: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا أعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلاّ بالتقوى..»[1].

وهو بهذا يؤكد ما قرره القرآن فى خطابه للناس كل الناس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٥/ ٤١١ عن أبى نضرة عمن سمع خطبة رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق. وذكره الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٦٦) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. ونقل الشيخ الألبانى عن ابن تيمية فى (الاقتضاء ٦٩)، أنه قال: إسناده صحيح.

ولكن القرآن فى هذه الآية التى تقرر المساواة العامة بين البشر، لا يلغى خصوصيات الشعوب، فهو يعترف بأن الله تعالى جعلهم (شعوبا وقبائل) ليتعارفوا.

أما (العولمة) فالذى يظهر لنا من دعوتها حتى اليوم: أنها فرض هيمنة سياسية واقتصاديةوثقافية واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامى: الولايات المتحدة بتفوقها العلمى والتكنولوجى، وبقدرتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التى ترى فيها نفسها أنها سيدة العالم: تريد أن تسوق البشر بعصاها!

العولمة ـ فى المفهوم الأمريكى ـ لا تعنى: معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء فى كل العالم، بل تعنى معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين.

العولمة فى أجلى صورها اليوم تعنى: (تغريب العالم) أو بعبارة أخرى: (أمركة العالم). إنها اسم مهذب للاستعمار الجديد، الذى خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدا جديدا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف (العولمة). إنها تعنى: فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأى دولة تتمرد أو تنشز، لا بد أن تؤدب، بالحصار، أو التهديد العسكرى، أو الضرب المباشر، كما حدث مع أفغانستان والعراق والسودان وإيران وليبيا. وكذلك تعنى فرض السياسات الاقتصادية التى تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالمية التى تتحكم فيها إلى حد كبير، مثل البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، وغيرها.

كما تعنى: فرض ثقافتها الخاصة، التى تقوم على فلسفة المادية والنفعية وتبرير الحرية إلى حد الإباحية، وتستخدم أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك فى المؤتمرات العالمية، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.

وتجلى ذلك فى (مؤتمر السكان) الذى عقد بالقاهرة فى صيف ١٩٩٤م. والذى أريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجيز الأسرة الوحيدة الجنس،

(زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء) وإطلاق العنان للأولاد فى السلوك الجنسى، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعى، إلى غير ذلك من الأمور التى تخالف الأديان السماوية كلها، كما تخالف ما تعارفت عليه مجتمعاتنا، وغدا جزءا من كينونتها الروحية والحضارية.

ومن هنا وجدنا الأزهر الشريف فى مصر، ورابطة العالم الإسلامى فى مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والجماعات الإسلامية المختلفة، تقف جنبًا إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة، لمقاومة هذا التوجه المدمر، إذ شعر الجميع أنهم أمام خطر يهدد قيم الإيمان بالله تعالى ورسالاته، والأخلاق التى بعث الله بها رسله عليهم السلام.

كما تجلت هذه العولمة فى (مؤتمر المرأة) فى بكين سنة ١٩٩٥م وكان امتدادا لمؤتمر القاهرة وتأكيدا لمنطلقاته، وتكميلا لتوجهاته.

وهذه قضية فى غاية الأهمية (الاعتراف بالخصوصيات) حتى لا يطغى بعض الناس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

بل نجد الإسلام يعترف باختلاف الأمم، وحق كل أمة فى البقاء حتى فى عالم الحيوان، كما جاء فى حديث النبى ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» رواه أبو داود[1]. وهو يشير إلى ما قرره القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وإذا خلق الله أمة مثل أمة الكلاب، فلا بد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئًا إلا لحكمة ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ (آل عمران: ١٩١) فلا يجوز إذن حذف هذه الأمة المخلوقة من خارطة الوجود، فإن هذا تطاول واستدراك على خلق الله تبارك وتعالى.

إذا كان هذا فى شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية؟ إلا أن ترتضى أمة باختيارها الانصهار فى أمة أخرى: فى دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الحديث فى كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) ص ١٤٦، ١٤٧ وكتابنا (رعاية البيئة فى شريعة الإسلام) طبعة دار الشروق بالقاهرة.

وبلاد شمال أفريقيا وغيرها، حين اختارت الإسلام دينا، والعربية لغة، بل أصبحت عضوا مهما في جسم هذه الأمة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان[1].

الاهتمام بالواقع المحلي:

ومع دعوة الخطاب الإسلامي للعالمية، وانفتاحه على الكون: لا ينسى الواقع الإقليمي والمحلي من حوله، فالأقربون أولى بالمعروف، والنبي ﷺ يقول: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[2].

والقرآن يقول: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (البقرة: ٢١٥).

فبدأ بالوالدين والأقربين، لأنهم أحق من غيرهم وأولى.

والإسلام - وإن كان يعتبر الأمة الإسلامية أمة واحدة - يرى توزيع زكاة كل إقليم في فقراء الإقليم نفسه. ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، لترد على فقرائهم»[3].

وبهذا سبق الإسلام ما يحرص عليه العالم المتحضر من فكرة (اللامركزية) ونظام (الإدارة المحلية) بدل (المركزية) الصارمة التي تتبع في بعض الأنظمة.

والإسلام يبدأ بالتنبيه على حق الأسرة، ويعني بها: الأسرة الموسعة التي تشمل الزوجين والأبناء والبنات والأحفاد، والوالدين، والأجداد، ثم تتسع لتشمل أولى القربى وذوي الأرحام: الإخوة والأخوات، وبنيهم وبناتهم، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولادهم. ويفرض الإسلام لهؤلاء حقوقا من الصلة والبر، قد تصل إلى النفقة على القريب بشروط معينة، كما أن القريب قد يرث قريبه إذا مات بشروط معينة.

---

(١) انظر: كتابنا (المسلمون والعولمة) طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية.

(٢) رواه مسلم (٩٩٧) عن جابر.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس.

ثم يمتد اهتمام المسلم إلى جيرانه الأقرب فالأقرب، حتى يشمل الحى كله، أو القرية كلها جيرانا له. وهؤلاء لهم حقوق يجب أن ترعى، وفى الحديث: «ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع»(١).

وهناك حقوق مفصلة للجار على جاره، يرجع إليها فى كتب الحديث والفقه والآداب الشرعية.

ثم أهل الإقليم الواحد لهم حقوق لبعضهم على بعض، إلى أن ينتهى إلى الأمة كلها، باعتبار أن المؤمنين إخوة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠).

وأنهم جميعا (أمة واحدة) وإن اختلفت أوطانهم، واختلفت أعراقهم، واختلفت ألسنتهم ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

و«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»(٢).

و«المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم وهو يد على من سواهم»(٣).

موقف الخطاب الدينى:

والمطلوب من الخطاب الدينى اليوم: أن يحافظ على الموازنة بين العالمية والمحلية، فلا يَغرق فى الثقافة العالمية، والسياسة العالمية، والاقتصاد العالمى، والقضايا العالمية فى الشرق والغرب، فى حين لا يهتم ببلده وأهله، لا يعرف حاجاتهم، ولا يسمع لآهاتهم، ولا يحس بتوجعاتهم، ولا يجيب عن تساؤلاتهم، ولا يسعى فى حل مشكلاتهم، وعلاج أمراضهم، الجسمية والنفسية والاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية، إنه يتحدث عن مشكلات الشمال والجنوب، والمشرق والمغرب، وهو مغفل مشكلات وطنه، التى لها حق الأولوية والتقديم على غيرها.

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ١٨٤) عن ابن عباس.

(٢) رواه البخارى (٢٤٤٢) عن ابن عمر، ومسلم (٢٥٦٤) عن أبى هريرة.

(٣) رواه أبو داود (٢٧٥١) والنسائى (٤٧٣٤) عن عبد الله بن عمرو.

إن الله تعالى حين كلف خاتم رسله محمدا بالدعوة، أمره أول ما أمر: أن يبدأ بعشيرته وأقرب الناس إليه، فقال تعالى: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (الشعراء:). كما وجهه إلى العناية بموطنه (مكة) ومن حولها؛ لما لهم من حق أوكد من غيرهم بحكم الجوار، فقال تعالى: ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ (الشورى:) لهذا كان بلد المرء الذى يعيش فوق ترابه، ويشرب من مائه، ويتنفس من هوائه: أولى برعياته من غيره من البلدان.

ومع هذا لا ينبغى للخطاب الدينى أن يغرق فى المحلية، ويغفل الساحة الأقليمية، والساحة العالمية. فكثيرا ما رأينا بعض المتحدثين الدينيين فى بعض البلاد، يحدث الناس عن عذاب القبر، أو عن آداب قضاء الحاجة، واليهود يهددون المسجد الأقصى، أو الأمريكيون والبريطانيون يغزون العراق، أو العالم كله يتحدث عن كارثة ١١ سبتمبر، ولكن صاحبنا بمعزل عن هذا كله، فهو سجون فى عالمه الخاص. ولا علاقة له بما يدور فى العالم من حوله، من سلم أو حرب، ولابما يجرى فى أرض الإسلام، وربما كانت أمة الإسلام هى الضحية المقصودة، فأين وحدة الأمة؟ وأين أخوة الإسلام؟ وأين تضامن المسلمين؟

إن الخطاب الإسلامى لا يجوز له، ولا يليق به، ولا يقبل منه: أن يتجاهل ما يجرى فى عالمنا الكبير اليوم، بعد ثورة الاتصالات، وثورة المعلومات.

لا يجوز له أن يتغافل مما يقال من (صدام الحضارات) أو (حوار الحضارات). أو ما يقال عن (حوار الأديان) أو (التقارب بين الأديان) أو بصمت عما تريده القوى الكبرى من (تغيير هويتنا) أو تغير مناهجنا التعلمية، واصلاح عقولنا الفاسدة، وتحريرنا من ثقافتنا المتخلفة!!

لا يجوز للخطاب الدينى أن نستهلكه القضايا المحلية إلى حد أن يجهل ما يشكو منه العالم من اختلال التوازن الكونى، واختلال التوازن البيئى[1]، واختلال التوازن الإنسانى.

يلزم الخطاب الدينى أن ينظر بعينين معا: أحداهما ترنو إلى الواقع المحلى والاقليمى، والأخرى ننظر إلى الواقعة العالمى. وهذا هو التوازن المطلوب.

---

(١) انظر: كتابنا (رعاية البيئة فى شريعة الإسلام) نشر دار الشروق، القاهرة.

٩ـ يحرص على المعاصرة ويتمسك بالأصالة

ومن خصائص خطابنا الديني الإسلامي في عصر العولمة: أنه يحرص على المعاصرة، ويتشرب روح العصر، وخصوصا في وسائله وآلياته. ولا يتجاهل في دعوته إذا دعا، ولا في تعليمه إذا علّم، ولا في فتواه إذا أفتى: تيارات العصر، ومذاهبه الفلسفية، ومدارسه الفكرية، واتجاهاته الأدبية، وانحرافاته السلوكية، ومشكلاته الواقعية.

فلا يعيش في الكتب القديمة وحدها، ولا يتقوقع على الماضي وحده، بل لا بد أن يعلم أن الدنيا تغيرت، وأن الحياة تطورت، فهو ابن زمانه ومكانه وبيئته. وفيما أثر عن السلف: رحم الله امرءا عرف زمانه، واستقامت طريقته.

وفيما ينسب إلى صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون عارفا بزمانه، مقبلا على شانه، حافظا للسانه.

ولقد قرر المحققون من فقهائنا: أن الفتوى تتغير بموجبات شتى، منها: تغير الزمان، وتغير المكان، وتغير العرف والحال وغيرها.

وهذا سر كثير من الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد ـ رحمهم الله جميعا ـ وفي هذا يقول علماء الحنفية: إنه اختلاف عصر وزمان، وليس اختلاف حجة وبرهان.

بل هذا من أسباب اختلاف رأي الفقيه في المسألة الواحدة بين زمن وآخر، كاختلاف الإمام الشافعي في مذهبه الجديد بعد أن استقر في مصر، ومذهبه القديم قبل أن يستقر فيها، في كثير من مسائل الفقه، ويقول علماء الشافعية: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. فقد اختلف المكان، واختلف الزمان، فزمان النضج غير زمان التكوين.

ولعل هذا أيضا من أسباب اختلاف الروايات عن الإمام مالك، والإمام أحمد، فربما عرضت عليه المسألة فى زمن، فأجاب فيها برأى، وسئل عنها فى زمن آخر، فأجاب عنها برأى مخالف.

وهذا ما جعل (مجلة الأحكام العدلية) الشهيرة تقول فى إحدى موادها، التى تتعلق بالقواعد الفقهية: (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان). وإن كان لنا ملاحظة على إطلاق الصياغة بهذا الشكل[1].

من سمات المعاصرة:

والمعاصرة لها سمات معينة، يجب أن تراعى فى وعظ الواعظ، وفى تعليم المعلم، وفى فتوى المفتى، وفى قضاء القاضى.

العقلية العلمية:

من هذه السمات: (العقلية العلمية) التى ترد كل شىء إلى العلم، وتزن كل شىء بالمنطق، ولا تقبل أى دعوى بلا برهان، وترفض التسليم للأباطيل، وقبول المبالغات والتهاويل، ولا تستسلم للدجالين والكهنة والمتلاعبين بعقول الجماهير باسم الدين، فالدين براء من هؤلاء. وهو يعتبر تصديق الكهنة والعرافين كفرا بما أنزل على محمد ﷺ.

وفى الحقيقة: إن (العقلية العلمية) ليست من اختراع العصر، ولا من مستوردات الغرب، بل هى العقلية التى ينشئها القرآن الكريم بآياته وتعاليمه، فهو يرفض الظن فى مقام اليقين، ويذم المشركين بقوله: ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ (النجم: ٢٨).

كما يرفض اتباع العواطف والأهواء فى البحث عن الحقيقة ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** ﴾ (القصص: ٥٠).

---

(١) انظر: تعليقنا على ذلك فى كتابنا (شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامى فى بيروت.

ويعلن حملته على الجمود والتقليد للآباء أو للسادة والكبراء، أو لعامة الناس[1]. وقد تحدثنا عن ذلك فى الخصيصة الثانية.

التجديد:

ومن سمات المعاصرة: (التجديد) فلا يقبل المسلم المعاصر: أن يظل القديم على قدمه، ولا يقبل تجميد الحياة والفكر والعلم والاجتهاد. فالماء إذا توقف أسن، والريح إذا ركدت كاد الناس يختنقون، والكون كله يتحرك، الأرض تدور، والفلك يسير، والشمس والقمر والنجوم كلها فى حركة دائمة، فلا يجوز أن يقف الإنسان أو يجمد مكانه، والكون كله من حوله يتحرك ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

لا يجوز تجميد العلم أو الفكر بدعوى قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا، فكم ترك الأول للآخر. ولا بقولهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان، فكم فى الإمكان أبدع مما كان من بدائع وروائع ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (إبراهيم: ١٩، وفاطر: ١٦).

وقد بين لنا رسول الإسلام أن الدين يتجدد، حين قال: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»[2].

وسواء كان هذا المجدد فردا أم جماعة ومدرسة، كما تفيده كلمة (مَنْ) التى تصلح للمفرد، وتصلح للجميع، فقد أفادنا الحديث شرعية التجديد للدين، فإذا كان الدين ـ وشأنه غالبا الثبات ـ يتجدد، فما بالك بغير الدين من شئون الحياة، وأمور العلم والفكر والأدب والثقافة والصناعة والفن؟!

التجديد لا يعنى التنكر للقديم:

ولكن التجديد المنشود لا يعنى الانفصال عن التراث، والتنكر للقديم، فليس كل قديم سيئا، كما ليس كل جديد حسنا، فكم من قديم نافع كل النفع، مبارك كل البركة، وكم من جديد لا خير فيه، بل هو ضرر وشر أكيد.

---

(١) فصلنا الحديث عن ذلك فى كتابنا (العقل والعلم فى القرآن الكريم) فصل: العقلية العلمية التى ينشئها القرآن.

(٢) رواه أبو داود في الملاحم من سننه عن أبي هريرة (٣٧٤٠) وصححه عدد من الأئمة.

على أن كلا من القدم والجدة أمر نسبى، فقديم اليوم كان جديد الأمس، وجديد اليوم سيصبح قديم الغد.

وليس من التجديد فى شيء: التبرم بكل قديم، وفتح الذراعين لكل جديد، وقد سخر أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعى من بعض مجددى زمنه، فقال عنهم: إنهم يريدون أن يجددوا كل شيء، حتى الدين واللغة والشمس والقمر!

وهؤلاء هم الذين سخر منهم شوقى فى قصيدته عن (الأزهر) حين صوب سهام نقده إلى الذين نالوا من مكانة الأزهر ورسالته ودوره لمجرد أنه (قديم) فقال:

دع عنك قول عصابة مفتونة	يجدون كل قديم أمر منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ساع فى القديم وهدمه	وإذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة	والعلم نزرا، والبيان مثرثرا

وهم الذين انتقدهم الفيلسوف المسلم الشاعر - شاعر الإسلام فى الهند - محمد إقبال، فقال لهم: إن الكعبة لا تجدد، بجلب حجارة لها من أوروبا! بمعنى أن هناك أشياء عظمتها فى قدمها، مثل الكعبة، فميزتها أنها (البيت العتيق) فمن أراد أن يجددها بجلب حجارة لها من أوروبا غير حجارتها الأصيلة السوداء، فهذا ليس بتجديد، ولكنه تخريب وتبديد. وهذا ما يجب أن يعيه الخطاب الدينى المعاصر، من ضرورة تحديد المفاهيم، والتمييز بين المتشابهات.

المرونة والتطور:

ومن سمات المعاصرة: (المرونة وقابلية التطور) فلا يجوز تثبيت كل شيء، وتجميد كل شيء، فهذا يؤدى إلى الموت والهلاك.

لقد تطور العلم، وتطورت الصناعة، وتطورت معهما الأفكار والتقاليد. لقد تطورت وسائل النقل من الحمار والجمل إلى الطائرة والصاروخ، وتطورت وسائل الكتابة من القلم فى اليد إلى المطبعة المتطورة، وتطورت وسائل الحرب من السيف

والنبل إلى القنبلة النووية. فلا ينبغى أن يظل الإنسان كما هو، وكل شيء حوله تغير، ولا أن يظل الفكر كما هو، والدنيا كلها تبدلت.

ولا شك أن الدنيا تطورت وتغيرت، ولكن جوهر الأشياء بقى كما هو، ازداد عمران الأرض وقامت ناطحات السحاب، ولكن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال بقيت كما هى.

وتغير ما حول الإنسان، كما تغيرت معارف الإنسان، وتغيرت إمكانات الإنسان، ولكن بقى جوهر الإنسان كما هو بخيره وشره، وفجوره وتقواه ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠).

ثبات الأهداف وتطور الوسائل:

ومن هنا نقول: إن الخطاب الدينى يجب أن يركز على (ثبات الأهداف) إلى جوار (تطور الوسائل) فهو يجمع بين الثبات والمرونة، فهو يجرى على سنة الكون: الحركة الدائبة فى إطار ثابت، وحول محور ثابت، كما قال سيد قطب رحمه الله[١].

فخطابنا الدينى الإسلامى: يلتزم المرونة فى الدعوة والفقه والتعليم والفتوى، ولكنه حين يدعو أو يعلّم أو يفتى أو يقضى أو يجتهد: منضبط بضوابط، ومحدود بحدود، ومقيد بقواعد، يعمل فى إطارها وفى دائرتها. وهى دائرة واسعة، ولكن لها أسوارها التى تحدها.

فالمرونة فى جانب الوسائل والآليات والجزئيات: تختلف باختلاف البيئات والأزمان والأحوال، بل قد تختلف باختلاف الأشخاص.

والثبات يكون فى الأهداف والغايات والمبادئ والمنطلقات التى ترسى الأسس، وتحدد الفكرة، وترسم الطريق[٢].

---

(١) فى كتابه (خصائص التصور الإسلامى ومقوماته) خصيصة (الثبات).

(٢) انظر: خصيصة (الجمع بين الثبات والمرونة) فى كتابنا (الخصائص العامة للإسلام).

موقف الخطاب الدينى:

هذا هو التوازن الذى ننشده فى خطابنا الدينى المعاصر . وإن كان مما يوسف له : أننا فى كثير من قضايانا الفكرية والدعوية : تقع ضحية الأفراط والتفريط ، ونفقد موضع (الوسطية) المتوازن . فبعض دعاننا وخطبائنا الدينيين يريدون أن (يجمّدوا) كل شىء ، فى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

فمن حلف على امر أنه بالطلاق الثلاث فى سورة من سورات الغضب : اقتوا بنطليقها منه ، وبانت منه بينونه كبرى ، لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، ففتحوا للناس باب البحث عن (محلل) . وضربوا صفحا عن فتاوى ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما فى أن مثل هذا الطلاق لا يقع ، وإنما فيه كفارة يمين ، وإذا كان الغضب شديدا فلا يقع بالمرة . لأنه طلاق فى حالة إغلاق .

وبعضهم يحرم الانتخابات ، لأنها لم نعرف فى الإسلام ، ويعطى الحاكم من السلطات ما يجعله أكبر دكتاتور فى العالم ، وهو إذا استشار ، فالشورَى غير ملزمة له . ويرى هؤلاء أن الأخذ بأساليب الديمقراطية وضماناتها للوقوف فى وجه الاستبداد السياسى ، وتقليم أطفار المستبدين ، وتقييد سلطاتهم ـ كل هذا ضد الدين لأنه مقتبس من أنظمة الكفار ، مع أن عمر الخطاب اقتبس من نظام الخراج عند الفرس ، ونظام الديوان عند الرومان .

وفى مقابل هؤلاء الجامدين المجمّدين : نجد المنفتحين المتسيبين ، الذين يريدون أن ننخلع من تراثنا كله ، ما كان منه إلهيّا ، وما كان منه بشريا ، وأن لا نتقيد بنص ولا قاعدة ، وأن يكون الشرع بين أيدينا كالعجين فى يد الخباز ، يشكله كيف يشاء ، حتى القطعيات أو الثوابت ، لا حرمة لها عندهم . ومن حقهم أن يفسروا القرآن كما يحلو لهم ، وأن يأخذوا من السنة ما راق لهم ، ويذروا منها مالا يوافق مزاجهم ، وأن بشرهوها على هواهم . وبهذا ضاعت الحقيقة بين الغلاة والمفرّطين .

والخير كل الخير فى البعد عن هؤلاء وأولئك ، والوقوف مع منهج الوسط ، وخير الأمور الوسط .

١٠- يستشرف المستقبل، ولا يتنكر للماضى

ومن خصائص خطابنا الإسلامى المعاصر: أنه يخرج المسلم من التقوقع على الماضى، والانكفاء على التراث، ليتطلع إلى المستقبل، ويستشرف آفاقه.

وقد أصبح تحرك الناس إلى المستقبل فى عصرنا سريعا حثيث الخُطا، حتى لا يكاد الإنسان يصدق ما يحدث من تغير هائل فى الماديات والمعنويات، بسرعة مذهلة، نتيجة للثورات العلمية التى فرضت نفسها على العالم: الثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، والثورة النووية، والثورة الفضائية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات. ومنطق الإسلام فى قرآنه وسنته يفرض علينا أن نوجه اهتمامنا إلى المستقبل، ولا نعيش أسرى الماضى.

القرآن الكريم والمستقبل:

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده - منذ العهد المكى - يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول، والمستقبل المرتجى، ويبين لهم أن الفلك يتحرك، والعالم يتغير، والأحوال تتحول، فالمهزوم قد ينتصر، والمنتصر قد ينهزم، والضعيف قد يقوى، والقوى قد يضعف، والدوائر تدور، سواء كان ذلك على المستوى المحلى أم العالمى، وفقا لسنة (التداول) التى أشار إليها القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم، ويرتبوا بيتهم، لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد، فكل آت قريب.

نقرأ سورة (القمر) المكية، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين، وهم أولو

القوة والشوكة، والعدد والعدة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٥، ٤٦).

ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: أى جمع يهزم؟ أى جمع يغلب؟. فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع، وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ[1].

وروى البخارى عن عائشة قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة، وإنى لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة، والنفسية المسلمة، للتغير الحتمى، والغد المرتقب.

وعلى المستوى العالمى نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع التاريخى بين الدولتين العظميين: فارس والروم ـ وقد كان صراعا اهتم له الفريقان فى مكة: المسلمون والمشركون ـ فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب، على الفرس المجوس عباد النار، وأنهم ـ وإن غُلبوا اليوم ـ سيغلبون في بضع سنين، وفى هذا تقول السورة جازمة: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم: ١ ـ ٥).

وهذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلنا على أمرين:

١ـ مدى وعى المجموعة المسلمة ـ على قلتها وضعفها المادى ـ بأحداث العالم الكبرى، وصراع العمالقة من حولها، وأثره عليها إيجابا وسلبا. فلا ينبغى أن يذهلهم الواقع المحلى عما يجرى فى عالمهم الكبير، فإنهم جزء لا يتجزأ منه.

٢ـ تسجيل القرآن لهذه الأحداث، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير، والانتقال من الواقع إلى المتوقع فى ضوء السنن.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٦) طبعة الحلبي.

والعبرة من هذا: ألا يعيش المسلمون فى هموم يومهم، ومشكلات حاضرهم، غافلين عن إمكانات المستقبل، وآفاقه المرتقبة، وإرهاصاته، ومبشراته أو نذره، فيفاجئوا بما لم يكن فى حسبانهم، ولم يخطر فى بالهم.

وفى سورة المزمل المكية، نقرأ الآية الأخيرة من السورة التى تتضمن تخفيف الله عن نبيه ومن معه فى قيام الليل وقراءة القرآن، لما ينتظرهم من مهام جسيمة فى المستقبل، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله. فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم، والذى يقتضى التخفيف عنهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢٠).

الرسول والمستقبل:

والقارئ المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلا عن مستقبل دعوته، بل كان يفكر فيه، ويخطط له، فى حدود ما هيأ الله له من فرص، وما آتاه من أدوات وأسباب.

ويكفى أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ فى مواسم الحج التى تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض دعوته عليهم، ويطلب نصرتهم، ويعدهم بوراثة ملك كسرى وقيصر، ليعلم إلى أى أفق كان يرنو بصره ﷺ.

وكان الرسول الكريم مؤمنا بمبدأين أساسيين:

الأول: أن هذا الواقع لا بد أن يزول، لأنه يحمل عوامل زواله، وأن البديل له هو الإسلام، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبانها.

لما اشتد الأذى بالصحابة فى مكة، وخصوصا المستضعفين منهم، جاء خبّاب بن الأرتّ إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ويستنجد به، وهو متوسد رداءه فى ظل

الكعبة. فقال بلسانه ولسان المعذبين من أمثاله: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه! والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

الثانى: أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سنن الله فى رعاية الأسباب، وتهيئة الخطط، وإعداد المستطاع من العدة، وإزاحة العوائق من الطريق، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلهية، فما يعجز عنه البشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة.

تجد ذلك واضحا كل الوضوح فى الهجرة إلى المدينة، فقد خُطِّط لها بإحكام، قدر ما يتيسر للبشر.

فقد اختار الرسول الكريم مهجره داخل جزيرة العرب لا خارجها - كالحبشة مثلا - فاختار يثرب، إذ الإسلام لا بد أن ينطلق من أرض العرب. فهذا هو الموقع المناسب، واختار أنصاره من العرب الخلص، الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذرياتهم، فكانوا الأوس والخزرج. إذ لا بد أن يكون أنصار الإسلام الأولون عربا. وقدم هجرة أصحابه على هجرته، ليكون ذلك أمكن لهم، وأليق بمقدمه بعدهم.

وهيأ للهجرة بعد إذن الله له: الرواحل التى يمتطيها فى رحلته الشاقة. والرفيق الذى يأنس إليه ويطمئن بصحبته ورأيه، فكان أبا بكر. والدليل الذى يعرف الطريق، ويؤتمن على السر، فكان عبد الله بن أريقط، وهو مشرك مأمون. والغار الذى يتوارى فيه حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس، وهو غار ثور فى جنوب مكة، أى فى غير طريق المدينة، تعمية على المشركين.

وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر والكتمان، وأسباب التوقى والاحتياط.

وترك للإرادة الإلهية بعد ذلك ما لا حيلة له فيه، ولذا لم يخامره ﷺ أدنى شك فى أن الله ناصره.

---

(١) رواه البخارى (٣٦١٢) عن خباب بن الأرت.

وعندما قال أبو بكر له، وهما فى الغار: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! قال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠).

وكان من أوائل ما صنعه لإقامة المجتمع الإسلامى بالمدينة: أن بنى مسجده للصلاة وعبادة الله، ولقاء المؤمنين.

وأنشأ سوقا تجاريا، بديلا عن سوق بنى قينقاع التى يتحكم فيها اليهود.

وعقد معاهدة مع يهود المدينة ليتفرغ للجبهة الوثنية التى لن تدعه يشعر بالهدوء والراحة.

وبدأ يرسل السرايا حول المدينة لإثبات الوجود، وتدريب الطاقات، وتخويف الطامعين، وإرساله رسالة إلى مشركى مكة: إننا هنا.

ومما فعله ﷺ بعد الهجرة: أنه قال: أحصوا لى عدد من يلفظ بالإسلام. فأحصوا له، فكانوا ألفا وخمسمائة رجل. وفى رواية: اكتبوا لى.

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته، وهى خطوة تقدمية فى هذا العصر المبكر. فهو يريد بهذا الإحصاء، أن يعرف مقدار (القوة الضاربة) عنده فى هذا الوقت، ليرتب عليها أموره فيما بعد.

وقد تبين لنا من معارف عصرنا: أن (الإحصاء) مقدمة ضرورية لأى تخطيط علمى سليم، لمواجهة المستقبل واحتمالاته.

لا يتنكر للماضى:

ومع اهتمام خطابنا الدينى بالمستقبل، واستشرافه له، ومحاولة استكشافه بعين مسلمة، ورؤية مؤمنة: لا يتنكر للماضى، ولا يهيل التراب على التراث، ولا يحاول أن يقلد أولئك الذين يريدون أن ينسلخوا من ماضيهم، أو من الانتساب إلى آبائهم.

إنهم يريدون أن يحذفوا (الأمس) من الزمن، وأن يحذفوا (الفعل الماضى) من

اللغة، ويحذفوا التاريخ من العلوم! وهذا خبل فى العقل، وقصور فى الرؤية، وخلل فى التوازن، فالزمن ماض وحاضر ومستقبل.

والله تعالى خلق للإنسان ذاكرة تختزن الماضى، كما خلق له مخيلة تستشف المستقبل. والإنسان الذى يصاب بفقد ذاكرته يعتبر مريضا فى نظر الطب وفى نظر المجتمع، ولا يستطيع أن يبنى حاضره أو مستقبله إلا على أساس ماضيه.

ويقول شوقى رحمه الله:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عىّ فى الحىّ انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ولهذا رأينا القرآن يذكر قصص الأولين، لنتخذ منها الدروس والعبر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١) وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠).

كما نرى القرآن يذكر المؤمنين بما جرى لهم من أحداث ظهر فيها فضل الله عليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ (المائدة: ١١). يذكرهم بما كان من كيد بنى قينقاع من اليهود.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب: ٩) يذكرهم بما كان من كيد قريش وغطفان، حين غزوا المدينة وانضم إليهم يهود بنى قريظة.

ويقول سبحانه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ (الأنفال: ٢٦) يذكرهم بنصر بدر بعد استضعافهم فى مكة.

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥) يذكرهم بما أصابهم فى أحد من الانكسار بعد ما أصابوا من النصر فى بدر، وسبب ذلك يرجع إلى أنفسهم، وعصيانهم أمر الرسول، وتركهم موقعهم على الجبل.

وهكذا لا بد من تذكر الماضى، لننتفع به فى بناء المستقبل.

موقف خطابنا الدينى:

إن كثيرا من خطابنا الدينى المعاصر، يكاد يكون محبوسا فى قمقم الماضى، لا يغادره، ولا يعرف غيره، ولا يوجه أى نظرة إلى (المستقبل) الذى أصبحت هناك علوم تخدمه، وهيئات تقوم على استشرافه، وميزانيات توضع على أساس ذلك، وخطط بعشر سنين أو عشرين أو ثلاثين سنة، أو أكثر من ذلك، تعدها دول شتى، نريد أن تتهيأ للغد بما يلزم له قبل أن يفاجئها بمتطلباته، فلا نقدر عليها.

لقد حدثنا القرآن عن المستقبل، وحدثنا الرسول عن المستقبل فى أحاديث شتى، تحت عنوان (أشراط الساعة) أو (الفتن) أو (الملاحم). وأهم ما يجب أن نستفيد منها، هو: ضرورة النظر إلى المستقبل، واعداد العدة اللازمة له، وليس تيئيس الناس من الغد، وتثبيط الهمم عن الاصلاح، والايحاء إلى أهل الدين بأننا فى آخر الزمان، وأن الإيمان فى إدبار، والكفر فى أقبال، وأن الشر غالب على الخير؛ واشاعة مثل هذه الأفكار، وتكرارها على الناس، واغفال المبشرات بانتصار الحق، وظهور الإسلام: من أشد الأخطار على العقلية المسلمة، ومن أعظم آفات الخطاب الدينى، الذى يتطلب التغيير والتطوير.

١١ـ يتبنى التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة

وينبغى للخطاب الدينى اليوم: أن يتبنى منهج التيسير فى الفتوى، والتبشير فى الدعوة، اتباعا للمنهج النبوى الذى علمه الرسول أصحابه، كما رواه عنه أنس أنه قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(١).

ولما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن، أوصاهما بوصية مختصرة جامعة، فقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»(٢).

ترجيح التيسير على التعسير فى الفقه:

ومن هنا كان على خطابنا الإسلامى أن يراعى هذه الطريقة النبوية، فيتخذ ـ فى مجال الآراء الفقهية المتعلقة بأحوال الفرد فيما يأكل ويشرب ويلبس ويعمل ويروّح عن نفسه، أو بأحوال الأسرة من الزواج والطلاق وما يتعلق بهما، أو بالمجتمع وسياسته واقتصاده وقوانينه ومعاملاته، وعلاقاته الدولية ـ خط التيسير، لا التعسير، والتسهيل لا التعقيد والتشديد.

وذلك لجملة أسباب:

أولها: أن الشريعة مبناها على اليسر، ورفع الحرج، والتخفيف، والرحمة والسماحة، كما دلت على ذلك النصوص الغزيرة والوفيرة.

يقول تعالى فى آية الصيام: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة: ١٨٥)، وفى ختام آية الطهارة: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ**﴾ (المائدة: ٦)، وعقب أحكام النكاح والمحرمات: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ**

---

(١) متفق عليه عن أنس.
(٢) متفق عليه عن أبى موسى الأشعرى.

﴿ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٧)، وفى أحكام القصاص والعفو فيه: ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقد ذكرنا حديث الرسول الكريم الذى يقول: «يسروا ولا تعسروا»(١) وحديثه لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا»(٢) ويقول: «بعثت بحنيفية سمحة»(٣).

ولما أصابت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة، فصلى دون اغتسال، والماء موجود، فشكاه من معه إلى النبى ﷺ فقال: ذكرت قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٩)، فتبسم النبى ﷺ(٤). وتبسمه ﷺ يعنى: إقراره على ما صنعه. على حين أنكر أشد الإنكار على جماعة أفتوا مجروحا أصابته جنابة بضرورة الاغتسال، فاغتسل فمات بسبب فتواهم المتعنتة، فقال: قتلوه، قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العى السؤال، إنما كان يكفيه أن يربط على جرحه ويتيمم»(٥).

ثانيا: أن الناس فى عصرنا أحوج ما يكونون إلى التيسير عليهم، والتخفيف عنهم، رفقا بهم، ومراعاة لحالهم، حيث ضعفت الهمم، وغلب على الناس التكاسل عن الخيرات، وكثرت فيهم العوائق عن الخير، والمرغبات فى الشر. وخصوصا بعد اختلاط المجتمع الإسلامى بغيره من المجتمعات، وتأثره بكثير من الأفكار والأعراف، إذ لم تعد العزلة ممكنة فى عصرنا.

فالأولى أن يفتوا بالرخص أكثر من العزائم، وبالتسهيل أكثر من التشديد. كما كان يفعل النبى ﷺ مع حدثاء العهد بالإسلام، ومع الأعراب من أهل البادية، فهو يقبل ممن أقسم ألا يزيد على الفرائض شيئا من السنن أو التطوع ولا ينقص منها، ويقول: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدق»(٦) أو «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»(٧).

---

(١) متفق عليه عن أنس. (٢) متفق عليه عن أبى موسى.
(٣) رواه أحمد عن عائشة. (٤) رواه أبو داود (٣٣٤) عن عمرو بن العاص.
(٥) رواه أبو داود عن جابر، ورواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٣، ٤٣٦٤).
(٦) متفق عليه عن طلحة. (٧) متفق عليه عن أبى هريرة.

كما رفق بالأعرابى الذى بال فى المسجد، وهَمَّ به أصحابه، فأمرهم ألا يقطعوا عليه بولته، وأن يصبّوا عليها ذنوبا من ماء، قائلا: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[1]، وكان ذلك رفقا به، ومراعاة لحاله.

ثالثا: إن الفرد بوسعه أن يشدد على نفسه إن شاء، ويأخذها بالعزائم إن كان من أهلها، مع أن الأولى هو الاعتدال والتوازن، كما فى الحديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[2].

ولكن لا ينبغى للفقيه أن يشدد على جمهور الناس فى الأمور التى تهم جمهورهم، وتتصل بحياتهم الاجتماعية، مراعيا أن فيهم: الضعيف، والكبير، والمريض، وصاحب العذر، كما جاء فى الإمامة فى الصلاة: «من أمَّ الناس فليخفف فإن من ورائه الكبير والمريض وذا الحاجة»[3].

والصلاة رمز لشئون الحياة المختلفة.

ولهذا يحسن بالخطاب الدينى المعاصر: ألا يتبنى الآراء المتشددة التى تُضيّق ولا توسّع، وتجنح إلى التحريم أكثر من التحليل، فى القضايا المتعلقة بالمرأة والأسرة واللهو والفنون ونحوها.

وفى مجال الافتاء، ومحال التشريع: ينبغى تبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية فى تضييق وقوع الطلاق، حفاظا على مؤسسة الأسرة.

ومثل ذلك الآراء المتعلقة بالمعاملات، فالأصل فيها الإباحة والإذن لا المنع والتحريم، كما أن الأصل فيها: النظر إلى المعانى والمقاصد، لا مجرد الوقوف عند ظواهر النصوص، كما قرر ذلك الإمام الشاطبى فى (الموافقات) ودلل عليه.

وكذلك قوانين العقوبات، ينبغى الأخذ بالأقوال الميسرة فيها، كالقول الذى يرى أن التوبة تسقط الحد، وأن عقوبة الخمر عقوبة تعزيرية[4].. وهكذا.

---

(١) رواه البخارى فى الوضوء (٢٢٠) عن أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر، وهو في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

(٣) رواه البخارى (٧٠٤) ومسلم (٤٦٦) عن أبى مسعود الأنصارى.

(٤) انظر فى ذلك: رسالتنا (عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية) العامل الخامس: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال.

وأود أن يكون شعارنا فى هذه المرحلة قول الإمام سفيان الثورى : «إنما الفقه الرخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد»[1] .

التشديد فى الأصول:

والتيسير الذى يتبناه الخطاب الإسلامى فى عصر العولمة : إنما هو تيسير فى الفروع ، التى هى مجال رحب للاجتهاد والاختلاف .

ولكن الأصول التى هى أساس الدين ومحوره ، والتى يقام عليها بنيانه ، وتشاد عليها أركانه ، لا ينبغى التساهل فيها ، فهى التى تحمى الأمة من الانفراط والذوبان .

ونعنى بهذه الأصول : العقائد الأساسية التى هى عمدة الدين فى الإلهيات والنبوات والسمعيات . والتى لا تقبل الاجتهاد ولا التجديد ولا التطور ، ومن خالف فيها كفر أو فسق .

أما العقائد الفرعية ، وما جرى فيها من خلاف ، عبر عنه بعض السلف بقوله : هؤلاء قوم عظموا الله ، وهؤلاء قوم نزهوا الله! فهذه للاجتهاد فيها مدخل ، وللاختلاف فيها مجال ، والمختلفون فيها دائرون بين الأجر والأجرين . فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر . وهذا من فضل الله تعالى ورحمته ، ومن روائع الإسلام أن يؤجر المجتهد وإن أخطأ ، وإنما كان أجره نتيجة اجتهاده وتحريه .

ولقد حقق ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما : أن الأجر يشمل الاجتهاد فى القضايا العلمية الأصولية ، والقضايا العملية الفروعية ، ولم يؤثر فرق بينهما . وهو الصحيح الذى تؤيده كل الأدلة .

التبشير فى الدعوة:

وكما تبنى الخطاب الدينى التيسير فى مجال الفقه والفتوى ، ينبغى أن يتبنى التبشير فى مجال الدعوة والتعليم ، ليكتمل المنهج النبوى المأمور به ، فكما اتبعنا منهجه فى قوله : «يسروا ولا تعسروا» علينا أن نتبعه فى قوله : «وبشروا ولا تنفروا» .

---

(١) انظر : كتابنا (أولويات الحركة الإسلامية) فصل (فكر وسطى) .

وعصرنا هذا أولى من غيره بالتزام التبشير، والبعد عن التنفير.

و«التبشير» مصدر بشَّر يبشِّر، وأصله الإخبار بأمر سارٍّ يظهر أثره على بشرة الإنسان، ثم استعمل فيما يقابل الإنذار، ولهذا كان رسل الله (مبشرين ومنذرين) يبشرون من آمن بالله وأطاع رسله بالجنة فى الآخرة، والحياة الطيبة فى الدنيا، وينذرون من كفر بالله وعصى رسله بالنار فى الآخرة، والدمار فى الدنيا.

والمراد بالتبشير هنا: كل دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم فى عبادته وطاعته، وتقودهم بحب ورفق إلى اتباع صراطه المستقيم.

فالتبشير فى نظرى يتعلق بجانب الدعوة، كما أن التيسير يتعلق بجانب الفتوى، وإذا وفق العالم المسلم إلى اتباع منهج التيسير فى الفتوى، والتبشير فى الدعوة، فقد أوى إلى ركن ركين، وهدى إلى صراط مستقيم.

ومعنى «لا تنفروا» أى لا تتبعوا النهج الذى ينفر الناس من شرع الله، ومن الالتزام بمنهجه القويم، مثل منهج الترهيب الدائم، والتخويف المستمر من الله تبارك وتعالى، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله، دون آيات الوعد والنعيم والرحمة منه سبحانه. ومثل ذلك فى أحاديث الوعيد.

قال العلامة العينى فى شرح الحديث فى عمدة القارى: فى قوله: «ولا تنفروا» يعنى: بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فيُتألف من قرب إسلامه بترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ وتاب من المعاصى، يتلطف بجميعهم بأنواع الطاعة قليلا قليلا، كما كانت أمور الإسلام على التدريج، فى التكليف شيئا بعد شىء، لأنه متى يسر على الداخل فى الطاعة، أو المريد للدخول فيها، سهلت عليه وتزايد فيها غالبا، وإذا عسر عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم، أو لا يستحملها[1] ا. هـ.

فينبغى على الدعاة أن يقودوا الناس إلى الله تعالى بزمام الحب، بدل أن يسوقوهم بسوط الخوف.

وينبغى البعد عن المبالغة فى الترغيب والترهيب والتخويف، الذى يتبعه كثير من

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ج٢ / ٤٧، طبع دار الفكر - بيروت.

الوعاظ، لأن هذا الأسلوب يرضى العوام، ولكنه كان ينفر المثقفين من الدين ومن رجاله ودعاته.

وكثيرا ما يقوم هذا الأسلوب الترهيبى المبالغ فيه، على الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والواهية، وهذه لا تصلح أن تكون مصادر لداعية فى القرن الخامس عشر، أو القرن الحادى والعشرين.

وبهذا نرى أن التيسير وعدم التعسير، يؤدى إلى التبشير وعدم التنفير، فهما يتداخلان أو يتلازمان.

موقف خطابنا الدينى:

وإن من الأفات التى يشكو منها خطابنا الدينى: جنوحه فى كثير من الأحيان إلى التشديد والتعسير، حتى إنه ليتبنّى أشد الآراء تضييقا على الناس فى سائل الحلال والحرام، وفى قضايا الفنون، وفى الاقتصاد والسياسة.

وكم رمانا هؤلاء بالحجارة والقذائف، لاختيارنا منهج التيسير على خلق الله، حتى قال بعضهم عن كتابى (الحلال والحرام) إنه كتاب (الحلال والحلال) إشارة إلى تضييقه فى مسائل التحريم، وقد رددت عليهم بقولى: ألفوا كتابا آخر، سموه كتاب (الحرام والحرام فى الإسلام)!

إن أقرب كلمة إلى ألسنة هؤلاء وأقلامهم، هى: كلمة (حرام) وهى كلمة خطيرة لاينبغى أن تقال إلا فيما دل عليه نص لا شبهة فيه.

فهم يحرمون الغناء ويحرمون الموسيقى، ويحرمون التصوير، ويحرمون لبس الخمار بدون نقاب، ويحرمون الاقتباس من النظام الديمقراطى، بل ربما اعتبر بعضهم الديمقراطية كفرا!

وهم يقرون بألسنتهم قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال والعرف، ولكنهم فى التطبيق لا يراعون ذلك. وكم لقينا فى (المجلس الأوربى للإفتاء والبحوث) من حدة ألسنتهم، ومن قذائف شتائمهم؛ لأننا يسرنا على (الأقليات المسلمة) التى تعيش خارج دار الإسلام، وتحيا فى مجتمع غير إسلامى. ومن واجب أهل الإفتاء أن يراعوا ظروفهم، ويقدروا حاجتهم. وعلى أساس هذا

أصدرتا فتاوانا لهم بإجازة شراء بيت للسكنى عن طريق القرض من البنك ، بشروط وضوابط معينة . وأجزنا للمسلم أن برت أباه أو أمة غير المسلمين ، على ما رآه بعض الصحابة والتابعين ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم .

كما أجزنا للمسيحية التى تسلم وزجها باق على دينه : أن تستمر معه بالعقد القديم ، بناء على ما جاء عن عمر وعلى رضى الله عنهما وعن بعض التابعين .

إن الخطاب الدينى مطالب أن ينبنى منهج التيسير والتبشير ، ولا يسير وراء المشددين ، فإن من شدد شدد الله عليه ، ومن يسر يسر الله عليه . وما أحوجنا إلى تيسير الله البر الكريم .

١٢ـ ينادى بالاجتهاد ولا يتعدى الثوابت

ومن خصائص خطابنا الإسلامى فى عصرنا هذا: أنه ينادى بالاجتهاد فى فهم الشريعة: جزئيا وكليا، انتقائيا وإنشائيا، بوصفه طريقا شرعه الإسلام لاستنباط الأحكام من النصوص، ومما لا نص فيه.

ولا يقيم حربا بين نصوص الشريعة ومقاصدها، بل يفهم النصوص الجزئية فى إطار المقاصد الكلية.

لا يقبل خطابنا الإسلامى المعاصر: مقولة (سد باب الاجتهاد) التى شاعت فى بعض الأزمان، فقد كانت هذه دعوى لها أسبابها وبواعثها، وهى: سد الطريق على المتلاعبين بالدين، الذين أردوا أن يطوعوا الفقه لخدمة الأمراء، وإن لم يقل بذلك الأئمة السابقون، فقال الورعون من العلماء: لا حق لكم فى الاجتهاد، أرادوا أن يغلقوا الباب دونهم، حتى لا يتجاوزوا الحدود.

ومع هذا لم يخل عصر من العصور من المجتهدين فى المذاهب المختلفة.

ففى القرن الثامن الهجرى ظهرت مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية التجديدية باجتهاداتها التى خالفت فيها المألوف والمأثور فى الطلاق وغيره، ودخل ابن تيمية وابن القيم السجن من أجل فتاويهما التى زعم خصومهم أنهم خرقوا فيها الإجماع.

وفى هذا القرن نفسه؛ كان فى المغرب الأندلسى: الإمام الأصولى أبو إسحاق الشاطبى (ت٧٩٧هـ) صاحب (الموافقات) و (الاعتصام) وغيرهما، كما ظهر العلامة المجدد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الفيلسوف الاجتماعى مؤسس علم الاجتماع، وهو مجتهد من نوع جديد.

وفى القرن التاسع ظهر فى مصر الإمام السيوطى الذى ادعى (الاجتهاد المطلق)

وأنكر عليه معاصروه دعواه، فرد عليهم برسالته القيمة (الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) وأثبت فى كتابه هذا من وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد من العلماء، ومن خالفوا مذاهبهم فى عدد من المسائل، وإن لم يعلنوا أنهم مجتهدون: وقال السيوطى: إن الناس يدعون اجتهادا واحدا، وأنا أدعى اجتهادات ثلاثة: اجتهاد فى اللغة، واجتهاد فى الحديث، واجتهاد فى الفقه، وتوفى السيوطى فى القرن العاشر سنة (٩١١هـ).

وفى القرن الثانى عشر ظهر فى الهند حكيم الإسلام العلامة ولى الله الدهلوى (ت ١١٧٦هـ) ليجلو الصدأ عن الفقه الإسلامى فى الهند، ويحيى علوم الحديث، ويخفف من التعصب للمذهب الحنفى، وصنف جملة كتب فى هذا الاتجاه، أهمها كتابه الفريد (حجة الله البالغة) فى أسرار الحديث، وأسرار الشريعة.

وفى نفس العصر ظهر علامة اليمن المجتهد المطلق العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الشهير بـ(الصنعانى) صاحب (سبل السلام) وحاشية العدة على العمدة، أى عمدة الأحكام للمقدسى، الذى شرحه ابن دقيق العيد فى كتابه (الإحكام فى شرح عمدة الأحكام) وقد توفى الصنعاتى سنة ١١٨٢هـ.

وفى القرن الثالث عشر ظهر علامة اليمن العملاق محمد بن على الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ) الذى ملأ الدنيا علما فى الأصول والفروع، وترك وراءه آثارا علمية تجديدية، تشير إليه، وتدل عليه، مثل: (نيل الأوطار) و(السيل الجرار) و(الدرارى المضيّة) و(إرشاد الفحول) فى علم الأصول، و(فتح القدير) الجامع بين الرواية والدراية فى التفسير، وغيرها. وكلها تنحو منحى الاجتهاد، ولا تلتزم مذهبا من المذاهب، بل تلتزم الدليل وحده.

إن الاجتهاد باب فتحه رسول الله ﷺ لفهم الشرع الشريف، فلا يملك أحد أن يغلقه. المهم أن يفتح باب الاجتهاد لأهله فى محله، فلا يدخل هذا الباب إلا من كان أهلا له، ومن يملك الشروط التى اتفق عليها العلماء لمن يريد الاجتهاد: من المعرفة العميقة بالقرآن وعلومه، والحديث وعلومه، واللغة وعلومها، والفقه وأصوله، وأن يكون لديه الملكة التى تؤهله للدخول فى هذا الميدان، فليس الباب مفتوحا لكل من هب ودرج من الناس، وليس كل من قرأ بعض كتب الحديث، أو بعض كتب الفقه، بأهل لأن يحشر نفسه فى زمرة المجتهدين.

كما أن محل الاجتهاد إنما هو الظنى من الأحكام، أما القطعيات فى ثبوتها ودلالتها، فلا مجال للاجتهاد فيها، فهى منطقة مغلقة.

وإن عصرنا هذا لهو أولى العصور بتجديد الاجتهاد فيه، لما جد فيه من مسائل لم تخطر للأئمة السابقين على بال، ولأن التغيرات فيه كثيرة جدا، وسريعة جدا، ومهمة جدا، وهى تقتضى من أهل العلم الشرعى أن يبدوا رأيهم فيها، ولا ينتظروا من الموتى أن بطلوا عليهم من القبور ليعطوهم فيها رأيا.

إننا نؤمن بأن الإسلام هو دين الله الخاتم، وأن شريعته خالدة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وهذا أمر متفق عليه، وإنما تصلح الشريعة للتطبيق فى كل زمان: إذا واجهت مشاكل المجتمعات بوصف الحلول الشرعية لها، فالاجتهاد فى هذا العصر لحل مشكلاته، وبيان الحكم الشرعى فيها: فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

ومن فضل الله تعالى: أن الشريعة لا تضيق ذرعا بأى جديد، فعندها لكل حادث حديث، ولكل مرض علاج، ولكل مشكلة حل.

وقد دخلت الشريعة قديما بلاد الحضارات: بلاد الفرس والروم ومصر والهند، فما ضاق صدرها بمشكلة، ولا توقف فقهاؤها فى مسألة، بل اجتهد أئمتها بما يناسب كل بيئة، وتركوا لنا تراثا هائلا تراكم وتضخم على توالى الأعصار.

الخطر هنا يكمن، حين يدخل الاجتهاد من ليس أهله، أو يكون الاجتهاد فى غير محله.

إن (الدخلاء) على العلم الشرعى هم الذين يفسدون حيث يزعمون أنهم يصلحون، ويهدمون من حيث يعلنون أنهم يشيدون.

إن أحدهم ربما لا يستطيع أن يقرأ سطرًا واحدًا دون أن يلحن مرة ومرتين، وربما لم يسمع بعلم النحو أو الصرف أو الاشتقاق، ولعله لم يقرأ كتابا واحدا فى علم أصول الفقه، أو علم أصول الدين، أو علم أصول التفسير، أو علم أصول الحديث، ومع هذا يقتحم ميدان الاجتهاد، ويحرف الكلم عن مواضعه، ويجترئ على تفسير كلام الله بما لم يقل به عالم سابق أو لاحق، ويشذ عن الأمة كلها، وهى لا تجتمع على ضلالة، ويخرج لنا فى النهاية بدين جديد، وشرع جديد، غير دين

الإسلام، وشرع الإسلام الذى عرفه المسلمون خلفا عن سلف، وتوارثوه جيلا عن جيل، ووصل إليهم بالتواتر العملى، واليقين التاريخى عن رسول الله ﷺ.

خطر (الدخلاء) هؤلاء هو الخطر الحقيقى، لأن وراءهم جهات مشبوهة تروج لأفكارهم، وتسوِّق كتبهم، وتفتح لهم الأبواب ليظهروا على الشاشات فى القنوات الفضائية. وفى مقابل هؤلاء: خطر (الحرفيين) المتشددين.

ولن يكون هناك اجتهاد حقيقى إلا إذا انتقلنا من فقه (الظواهر) إلى فقه (المقاصد). أما إذا مشينا وراء (الظاهرية الجدد) وتمسكنا بـ (حرفية) النص، وأهملنا النظر فى الحكَم والأسرار والمعانى التى من أجلها جاء النص، ولم نراع المقاصد الكلية العلياَ التى أنزل الله شرائعه لتحققها فى حياة الناس من العدل والإحسان والرحمة والإخاء والحب والتكافل والتعاون على البر والتقوى. وبرعايتها تزكو الأنفس، ويصلح الأفراد، وتسعد الأسر، وتتلاحم المجتمعات، وترقى الأمم، وتتعارف الإنسانية.

إن مشكلة (الحرْفيين): أنهم فى غالبهم مخلصون طيبون متدينون، ولكنهم ضيقو الأفق، فى فهم النصوص، وفى فهم الواقع، ولا يبالون بتغير الزمان والمكان والإنسان. وهم مستعدون أن يقاتلوا دون رأيهم، وأن يخوضوا المعارك لإبقاء كل قديم على قدمه. فليس فى الإمكان أبدع مما كان، وما ترك الأول للآخر شيئا. وأول أسلحتهم فى معركتهم: الاتهام لكل من عارضهم بقلة الدين، واتباع غير سبيل المؤمنين. وأسرع الكلمات إلى ألسنتهم إذا خطبوا، وإلى أقلامهم إذا كتبوا: (التبديع) و(التفسيق) بل (التكفير)!

ولديهم قدرة فائقة على التشويش و(التهويش) وكسب العوام السطحيين، الذين يعجزون عن التمييز بين دقائق الأمور، والذين تستهويهم الألفاظ البراقة، وإن لم يكن وراءها حقائق علمية أو دينية، ولا يستطيعون أن يفرقوا بين الأصلى والفرعى، ولا بين القطعى والظنى، ولا بين المحكم والمتشابه.

معالم وضوابط للاجتهاد المعاصر:

ولقد تحدثت فى كتابى (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) عن جملة معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم، حتى يستقيم ولا يزيغ، وينضبط

ولا ينفرط، ويمكن أن نلخص هذه الضوابط هنا، لأهميتها، وحاجتنا إلى تقريرها وإشاعتها، مضيفين إلى تلخيصنا بعض الفوائد المهمة.

أولا: لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع:

يجب أن نذكر أن الاجتهاد ـ كما عرفه الأصوليون ـ هو استفراغ الفقيه وسعه فى نيل الأحكام الشرعية بطريق الاستنباط.

فلا اجتهاد إلا بعد (استفراغ الوسع) ومعناه: بذل أقصى الجهد فى تتبع الأدلة، والبحث عنها فى مظانها، وبيان منزلتها من القوة والضعف، والموازنة بينها إذا تعارضت، بالاستفادة مما وضعه أهل الأصول من قواعد التعادل والترجيح. حتى اشترط بعض الأصوليين فى تعريف الاجتهاد: أن يحس بالعجز عن مزيد طلب، أى بلغ الغاية فى البحث، ولم يعد عنده أى احتمال للزيادة.

وإذن، لا يكون من الاجتهاد المعتبر شرعا: ما يفتى به المتسرعون الذين اجترءوا على اقتحام الفتوى لجراءاتهم على النار! حتى إنهم ليفتون بما ينفيه صريح القرآن. أو يكذبه صحيح الحديث، أو يخالف إجماع المسلمين.

ثانيا: لا محل للاجتهاد فى المسائل القطعية:

يجب أن نذكر أن مجال الاجتهاد هو الأحكام الظنية الدليل، أما ما كان دليله قطعيا فلا سبيل إلى الاجتهاد فيه، وإنما تأتى ظنية الدليل من جهة ثبوته، أو من جهة دلالته، أو من جهتهما معا.

فلا يجوز إذن فتح باب الاجتهاد فى حكم ثبت بدلالة القرآن القاطعة، مثل فرضية الصيام على الأمة، أو تحريم الخمر، أو لحم الخنزير، أو أكل الربا، أو القصاص من القاتل المتعمد، أو توريث الأولاد للذكر مثل حظ الانثيين.. ونحو ذلك من أحكام القرآن والسنة اليقينة، التى أجمعت عليها الأمة، وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة، وصارت هى عماد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة.

ومقتضى هذا ألا ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون تحويل محكمات النصوص إلى متشابهات، وقطعيات الأحكام إلى ظنيات ومعنى هذا: أن لا يبقى للأمة شىء تجتمع عليه.

ثالثا: لا يجوز أن نجعل الظنيات قطعيات:

ويجب أن تظل مراتب الأحكام كما جاءتنا، القطعى يجب أن يظل قطعيا والظنى يجب أن يستمر ظنيا، فكما لم نجز تحويل القطعى إلى ظنى، لا نجيز أيضا تحويل الظنى إلى قطعى، وندعى الإجماع فيما ثبت فيه الخلاف، مع أن حجية الإجماع ذاته ليست موضع إجماع!.

فلا يجوز أن نشهر هذا السيف - سيف الإجماع المزعوم - فى وجه كل مجتهد فى قضية، ملوّحين به ومهددين، مع ما ورد عن الإمام أحمد أنه قال: «من ادعى الإجماع فقد كذب، وما يدريه! لعل الناس اختلفوا وهو لا يعلم!».

ولذلك يجب أن نقيّد الإجماع الذى نحترمه ولا نتعداه بـ (الإجماع المستيقن) وكذلك ألا يكون مبنيا على مصلحة زمنية أو عرف متغير، فهذا يجوز أن يغير باجتهاد جديد.

رابعا: الوصل بين الفقه والحديث:

يجب أن نمد جسرا واصلا بين الفقه والحديث، وأن تزول الفجوة القائمة بين المدرستين: المدرسة الفقهية والمدرسة الحديثية.

فالمشاهد أن أغلب المشتغلين بالحديث لا يهتمون كثيرا بالدراسات الفقهية والأصولية، ولا يوجهون همتهم إلى علل الأحكام، وقواعد الشريعة ومقاصدها. وهى التربة اللازمة لنمو بذرة الاجتهاد، وبلوغها غايتها، وخصوصا ما يتعلق باختلاف الفقهاء وتنوع مشاربهم، وتعدد منازعهم فى الاستنباط والاستدلال، وأهميتها فى تكوين ملكة الاجتهاد، حتى جاء عن أكثر من واحد من علماء السلف: من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم أنفه رائحة الفقه!.

وفى مقابل هؤلاء نجد لدى أغلب المشتغلين بالفقه وأصوله ودراساته ضعفا ظاهرا فى الحديث وعلومه ورجاله، حتى إنهم ليستدلون أحيانا بالأحاديث الواهية أو التى لا أصل لها، وقد يردون بعض الأحاديث، وهى صحيحة متفق عليها. مع أن من المتفق عليه: أنه لا يمكن أن يقوم اجتهاد صحيح إلا بمعرفة الحديث رواية ودراية، فالسنة هى المصدر الثانى للتشريع فى الإسلام.

خامسا: الحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع:

ينبغى أن نحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم فى مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه، ولم يصنعه المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم، إنما هو واقع صُنع لهم، وفُرض عليهم، فى زمن غفلة وضعف وتفكك منهم، وزمن قوة ويقظة وتمكن من عدوهم المستعمر، فلم يملكوا أيامها أن يغيروه أو يتخلصوا منه، ثم ورثه الأبناء من الآباء، والأحفاد من الأجداد، وبقى الأمر كما كان.

فليس معنى الاجتهاد أن نحاول تبرير هذا الواقع على ما به، وجر النصوص من تلابيبها لتأييده، وافتعال الفتاوى لإضفاء الشرعية على وجوده، والاعتراف بنسبه مع أنه دعىّ زنيم. إن الواجب أن يخضع الواقع للشرع، لا أن يخضع الشرع للواقع، لأن الشرع يمثل كلمة الله، وكلمة الله هى العليا أبدا.

سادسا: الترحيب بالجديد النافع:

لا ينبغى أن نجعل أكبر همنا مقاومة كل جديد، وإن كان نافعا، ولا مطاردة كل غريب وإن كان صالحا، وإنما يجب أن نفرق بين ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن، وما يجب مقاومته وما لا يجب، وأن نميز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد، وما تقبل فيه المرونة والتطور.

ومعنى هذا أن نميز بين الأصول والفروع، وبين الكليات والجزئيات، وبين الغايات والوسائل، ففى الأولى نكون فى صلابة الحديد، وفى الثانية نكون فى ليونة الحرير، كما قال إقبال ـ رحمه الله ـ مرحبين بكل جديد نافع، محتفظين بكل قديم صالح.

سابعا: ألا نغفل روح العصر وحاجاته:

ألا ننسى أننا فى القرن الخامس عشر الهجرى، لا فى القرن العاشر، ولا ما قبله، وأن لنا حاجاتنا ومشكلاتنا التى لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة وخلفها، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا، لا أن يجتهد لنا قوم ماتوا قبلنا بعدة قرون، ولو

أنهم عاشوا عصرنا اليوم، وعانوا ما عانينا، لرجعوا عن كثير من أقوالهم، وغيروا كثيرا من اجتهاداتهم، لأنها قيلت لزمانهم، وليس لزماننا.

وقد رأينا أصحاب الأئمة وتلاميذهم يخالفونهم بعد موتهم - وهم متبعون لأصولهم - لتغير العصر اللاحق عن العصر السابق، رغم قرب المدة، وقصر الزمان.

بل رأينا إماما كالشافعى يغير اجتهاده فى عصرين قريبين، قبل أن يستقر فى مصر، وبعد أن استقر فى مصر، وعرف تاريخ الفقه مذهبه القديم، ومذهبه الجديد، وأصبح معروفا فى كتب المذهب: قال الشافعى فى القديم، وقال الشافعى فى الجديد.

فكيف بعصرنا، وقد تغير فيه كل شىء، بعد عصر الانقلاب الصناعى، ثم عصر التقدم التكنولوجى، عصر غزو الكواكب و(الكمبيوتر) وثورة الاتصالات والمعلومات، وثورة البيولوجيا التى تكاد تغير مستقبل الإنسان؟!!

ثامنا: الانتقال إلى الاجتهاد الجماعى:

ينبغى فى القضايا الجديدة الكبيرة ألا نكتفى بالاجتهاد الفردى، وأن ننتقل من الاجتهاد الفردى إلى الاجتهاد الجماعى، الذى يتشاور فيه أهل العلم فى القضايا المطروحة، وخصوصا فيما يكون له طابع العموم، ويهم جمهور الناس.

فرأى الجماعة أقرب إلى الصواب من رأى الفرد، مهما علا كعبه فى العلم، فقد يلمح شخص جانبا فى الموضوع لا ينتبه له آخر، وقد يحفظ شخص ما يغيب عن غيره. وقد تبرز المناقشة نقاطا كانت خافية، أو تجلى أمورا كانت غامضة، أو تذكر بأشياء كانت منسية. وهذه من بركات الشورى، ومن ثمار العمل الجماعى دائما: عمل الفريق، أو عمل المؤسسة، وفى الحديث: (يد الله على الجماعة)[1].

وقد روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس: أن على بن أبى طالب قال: قلت: «يا رسول الله إن عرض لى أمر لم ينزل فيه قرآن، ولم تمض فيه سنة، منك! (أى ماذا أفعل؟) قال: تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين، ولا تنضونه برأى خاصة»[1] وهذا هو الاجتهاد الجماعى.

---

(١) رواه ابن أبى عاصم والحاكم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عمر، ورواه ابن أبى عاصم أيضا عن أسامة بن شريك. صحيح الجامع الصغير (٨٠٦٥).

هذا الاجتهاد الجماعى يتمثل فى صورة مجمع علمى إسلامى عالمى يضم الكفايات العليا من فقهاء المسلمين فى العالم، دون نظر إلى إقليمية أو مذهبية، أو جنسية، فإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه، لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذلك النظام، أو قرابته أو قربه من الحاكم أو الزعيم.

وقد قامت مجامع فقهية: فى الأزهر الشريف بمصر، وفى رابطة العالم الإسلامى بمكة، وفى منظمة المؤتمر الإسلامى بجدة، وقام كل منها بدور مشكور، ولكنها لا تحقق المجمع الحر الذى نصبو إليه.

على أن هذا الاجتهاد الجماعى لا يقضى على اجتهاد الأفراد ولا يغنى عنه. ذلك أن الذى ينير الطريق للاجتهاد الجماعى هو البحوث الأصيلة المخدومة التى يقدمها أفراد العلماء من المجتهدين والمقلدين، لتناقش مناقشة جماعية ويصدر فيها بعد البحث والحوار قرار المجمع المذكور بالإجماع أو الأغلبية.

تاسعا: لنفسح صدورنا لخطأ المجتهد:

لا بد أن تتسع صدورنا لأخطاء المجتهدين، كما اتسعت صدور الأولين، فالمجتهد بشر يفكر ويستنبط، ويخطئ ويصيب، ولن يكون مجتهدو اليوم أفضل من مجتهدى الأمس، وقد وسع بعضهم بعضا فيما رأوا أنه أخطأ فيه. وهكذا ينبغى أن يكون موقفنا من المجتهد إذا افترضنا أنه أخطأ، وتبين لنا خطؤه بيقين. وذلك منوط بشرطين:

(أ) أن يملك أدوات الاجتهاد - وهى معروفة مذكورة فى أصول الفقه - فليس كل من اشتغل بالفقه أو ألف فيه أو حفظ مجموعة من الأحاديث يعد مجتهدا.

(ب) أن يكون عدلا مرضى السيرة. وهو ما يطلب فى قبول الشاهد فى معاملات الناس، فكيف بقبول من يفتى باجتهاده فى شريعة الله؟.

فهذا إن أخطأ فهو معذور، بل مأجور أجرا واحدا على اجتهاده وتحريه، ومن

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ١٨٠) وفيه راو ضعيف.

يدرى لعل الرأى الذى يظنه الأكثرون اليوم خطأ هو الصواب بعينه، كما يدل على ذلك تاريخ الاجتهاد وتغير الفتوى.

تلك هى المعالم والضوابط الضرورية فى نظرنا، التى ينبغى أن يراعيها الاجتهاد فى عصرنا الحافل بشتى التيارات والمؤثرات، سواء كان اجتهاد ترجيح وانتقاء، أم اجتهاد إبداع وإنشاء.

موقف خطابنا الدينى:

وآفة خطابنا الدينى المعاصر، تتمثل فى البعد عن هذا الموقف المتوازن من الاجتهاد، ووقوع هذا الخطاب - إلا ما رحم ربك - بين غلو الجامدين، وتفريط المتسيبين.

الجامدون يريدون أن يجمّدوا كل شىء، وأن يفرضوا على الناس اجتهادات لأزمنة مضت، لم تعد تناسب أوضاعهم، أو تحقق مصالحهم. وأوجبوا تقليد عالم أو إمام واحد، يؤخذ بقوله كله إلى يوم القيامة، وإن تغير كل شىء حول الإنسان. وهؤلاء يشنون الغارة على كل من يرى رأيا جديدا أداه إليه اجتهاده، وإن كان من أكبر العلماء. مع أن من المقرر لدى الجميع: أن الله لا يدين الإنسان إلا بما انتهى إليه اجتهاده، ولا يطالبه بأن يتبع اجتهاد غيره كائنا من كان.

وإذا كان هذا شأن الجامدين المقلدين: فإن هناك فئة أخرى، تريد أن تميّع كل شىء، وأن تحل ما حرم الله، وتسقط ما أوجب الله، وتشرع ما لم يأذن به الله، كل هذا وهم لا يملكون أدوات الاجتهاد، ولا الحد الأدنى من شروطه المتفق عليها.

إنهم يريدون أن يصنعوا للأمة دينا جديدا، لا يقوم على قرآن ولا سنة. لقد تخلصوا من السنة بإنكارها كلها، ما صح منها وما لم يصح، إلا ما كان فيها موافقا لأهوائهم.. وأما القرآن، فلا يمكنهم انكاره، فزعموا أنهم يقرأونه قراءة جديدة معاصرة، تنكر تراث الأمة كلها، ولا ترجع إلى حديث نبوى، ولا قول صحابى ولا تابعى، ولا إمام من أئمة المسلمين. ليس لهم مرجعية يعتمدون عليها، إلا ما تمليه أهواؤهم، وأئمتهم من الغرب الذى اتخذوه قبلة لهم، واتخذوهم أربابا من دون الله.

إن الخطاب الدينى الراشد يجب أن يتخلى عن نهج هؤلاء وأولئك جميعا، ويسلك سبيل الوسط، وهو سبيل المؤمنين، وبهذا يهتدى إلى صراط الله المستقيم.

١٣ـ ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع

ومن خصائص الخطاب الإسلامى فى عصر العولمة : أنه يوضح الفرق بين الإرهاب الممنوع والجهاد المشروع الذى فرضه الإسلام ، ويبين مدى حرص الإسلام على مسالمة من يسالمه ، حرصه على معاداة من يعاديه ، فهو ينكر الإرهاب ، ويدعو إلى الجهاد .

الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض:

لقد أعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب ، وجندت العالم الغربى معها ـ بل تريد أن تجند العالم كله معها ، وتجندنا نحن العرب والمسلمين أيضا ـ لتحارب ما سمته هى (الإرهاب) .

وتركت مفهوم الإرهاب مائعا رجراجا ، لتفسره هى كما يحلو لها ، وتصف به من تشاء من الدول ، ومن تريد من المنظمات والجماعات والأفراد .

فمن غضبت عليه أمريكا لأى سبب ـ أو لغير سبب ـ فهو إرهابى أثيم ، يجب أن يحارب ويطارد ويتعقب ، ويعاقب بكل أنواع العقوبات : العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ونحن المسلمين نقرأ فى قرآننا قول الله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

فهذا الإرهاب لأعداء الله وأعداء الأمة مشروع .

إنما الإرهاب غير المشروع هو الذى يروع الآمنين ، ويأخذ البرآء بذنب غيرهم ، ولا يبالى ما سفك من دماء ، ولا ما دمر من منازل ، ولا ما استحل من حرمات .

وفى مثل هذا جاء الحديث النبوى: «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما». وقد جاء هذا الحديث فى رجل تسبب فى فزع مسلم، أخذ منه نعله وهو نائم، على سبيل المداعبة، فانتبه فزعا، فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»(١).

وحتى فى الحروب الإسلامية التى تلتحم فيها الجيوش بعضها مع بعض: لا يقتل إلا من يقاتل، ولما رأى النبى ﷺ: امرأة مقتولة فى إحدى الغزوات، أنكر ذلك، وقال: ما كانت هذه تقاتل! ونهى عن قتل النساء والصبيان.

فمن هدف إلى قتل أناس أبرياء، لا ناقة لهم ولا جمل فى الحرب أو فى السياسة، فعمله مجرّم ومحظور شرعا. فهذا موقفنا المبدئى الذى يفرضه الإسلام علينا.

إننا ندين الإرهاب بكل صوره، مهما كانت دوافعه ومنطلقاته خيرة فى نظر أصحابه. فمن المعلوم أن الإسلام يرفض الفلسفة التى تقول: الغاية تبرر الوسيلة. فالإسلام يلتزم ويلزم بشرف الغاية وطهر الوسيلة معا، ولا يجيز بحال الوصول إلى الغايات الشريفة بطرق غير نظيفة، لا يجيز للمسلم أن يأخذ الرشوة مثلا، أو يختلس المال، ليبنى به مسجدا أو يقيم به مشروعا خيريا «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»(٢).

ونحن كما ندين الإرهاب: ندين العنف وننكره باسم الشرع. ولكن ما العنف الذى ننكره؟ وما الإرهاب؟ وما الفرق بينهما؟ إن تحديد المفاهيم هنا (ضرورة علمية) حتى لا تبقى هذه الكلمات الخطيرة مائعة هلامية يفسرها كل فريق بما يحلو له، ويتبع هواه.

العنف - فيما أرى -: أن تستخدم فئة القوة المادية فى غير موضعها، وتستخدمها بغير ضابط من خُلُق أو شرع أو قانون. ومعنى (فى غير موضعها): أن تُستخدم حيث يمكن أن تستخدم الحجة أو الإقناع بالكلمة والدعوة والحوار بالتى هى أحسن، وهى حين تستخدم القوة لا تبالى من تقتل من الناس، ولا تسأل نفسها: أيجوز قتلهم أم لا؟ وهى تعطى نفسها سلطة المفتى والقاضى والشرطى.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٤) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا.

(٢) رواه مسلم (١٠١٥) عن أبى هريرة.

هذا هو العنف، أما الإرهاب فهو: أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، وإن كانت عادلة فى رأيك.

ويدخل فى ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة ـ عادة ـ قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على جهة معينة، مثل: حكومة الطائرة المخطوفة، لتحقيق مطالب له: كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة، أو فجروها بمن فيها.

كما يدخل فى ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط: لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعل جماعة أبو سياف فى جنوب الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل السياح فى مصر، كما فى مذبحة الأقصر، لضرب الاقتصاد المصرى، للضغط على الحكومة المصرية.

ويدخل فى هذا: ما حدث فى جزيرة (بالى) فى إندونيسيا، فليس هناك مشكلة بين الذين ارتكبوا هذه الجريمة وهؤلاء السياح، ولكن أرادوا إحراج الحكومة الإندونيسية، وإظهار العداء للسياسة الأمريكية والبريطانية.

ومن ذلك: ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها: من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها (آلة هجوم) وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البرآء: فى برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وفيهم: أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسى، وكلهم موظفون يؤدون عملهم اليومى الذى يعيشون منه، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولما فيه من ترويع البرآء الآمنين، وترويعهم فى نظر الإسلام: ظلم عظيم.

وقد أصدرت فتوى ـ منذ بضعة عشر عاما ـ: بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين: ستة عشر يوما، كما قتلوا واحدا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارا على ما اقترفته جماعة (أبو سياف) في جنوب الفلبين.

وكذلك أصدرت بيانا ـ عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ـ دنْتُ فيه هذا العمل ومقترفيه، أيا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضا: دنت الإرهاب بوضوح ـ فى خطبى، ومحاضراتى، ومقالاتى، وكتبى ـ ومن ذلك: ما ذكرته فى كلمتى التى ألقيتها فى مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذى عقد فى روما فى أكتوبر ٢٠٠١م.

وأول إرهاب يجب أن يدان: هو إرهاب الدولة الصهيونية المتجبرة فى الأرض، التى بنيت على الإرهاب قبل أن تقوم، وتبنته بعد أن قامت، وهى تستبيح الحرمات، وتستحل سفك الدماء، وتدمير مئات المنازل، وإحراق المزارع، وتجريف الأرض الزراعية، وتخريب كل شيء، فلا تتورع عن قتل طفل صغير، أو شيخ كبير أو امرأة فى بيتها.

ولكن ليس من الإرهاب فى شيء: أن يدافع الإنسان عن وطنه، ويقاتل محتليه وغاصبيه، المعتدين عليه، المستندين إلى ترسانتهم العسكرية الجبارة، وأن يقاتل أعداءه بما يملكه من قوة، كأن يجعل من نفسه قنبله بشرية، ويفجر نفسه فى أعدائه الطغاة المستكبرين فى الأرض بغير الحق، فهو يضع روحه على كفه، ويضحى بنفسه فداء لأمته وقضيته، وهذا سلاح ملكه الله للضعفاء فى مواجهة المدلين بالقوة الطاغية. فهذه العمليات الاستشهادية المشروعة، للدفاع عن النفس والدين والأرض والعرض والمقدسات.

فإذا كان النظام العالمى الجديد جادا حقا فى محاربة الإرهاب، فعليه أن يدين الإرهاب الحقيقى أولا، وأن يقلم أظفاره، ويخمد ناره، وأن يقف بجوار الشعوب المقهورة، التى تقاوم عدوها المحتل لأرضها بما تستطيعه وتملكه من وسائل وأدوات، هى جهد المقل، وطاقة العاجز.

ومن ذلك : أن نبحث عن أسباب الإرهاب فى العالم ، ونجتهد أن نجتثها من جذورها ، وأعظم أسباب الإرهاب هو : الظلم والطغيان والاستكبار فى الأرض على الناس المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

الإرهاب ظاهرة عالمية:

ولكن هنا يحق لنا أن نسأل عن العنف والإرهاب : هل هو ظاهرة إسلامية؟ أو هو ظاهرة عالمية؟ فبعض أبواق الإعلام الغربى - ومن يدور فى فلكها فى ديارنا - تريد أن تبرز الإرهاب ، وكأنه مقصور على المسلمين ، أو كأن جنسيته إسلامية ، وخصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر ، وهذا خطأ فاحش ، بل ظلم مبين .

لقد وجدنا العنف فى أقطار ودول شتى فى أنحاء العالم . لقد وجدناه فى كل القارات : فى بريطانيا ، وفى اليابان ، وفى أمريكا نفسها ، وفى الهند ، وفى إسرائيل . فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربى والأمريكى والصهيونى ، الذى يكتم الحق ، ويشيع الباطل ، ويقولون على الناس الكذب وهم يعلمون .

والحق أن أمريكا التى ساندت الدولة التى قامت على الدم والإرهاب من أول يوم ، ومن قبل أن تقوم : دولة بنى صهيون ، تمارس هى نوعا من الإرهاب على العالم كله ، وإن لم تسمه إرهابا . فهى تحدد الإرهاب كما تشاء ، وبلا معقب ، معلنة : أن من ليس معها ، فهو مع الإرهاب!!

الجهاد المشروع ومعناه:

إذا كان الخطاب الإسلامى ينكر الإرهاب بالباطل ، فإنه يؤيد (الجهاد) بالحق وللحق .

وكثيرا ما فهم مصطلح الجهاد خطأ ، فى داخل الدائرة الإسلامية ، وخارج الدائرة الإسلامية .

فمن بين المسلمين من حصر الجهاد فى القتال ، فالجهاد عندهم هو : حمل السيف لقتال أعداء الإسلام ، وكثيرا ما يتصور أعداء الإسلام حكام وطنه ، أو المخالفين له

في العقيدة ولو كان من أبناء وطنه، بل ربما يتهم كثيرا من عوام المسلمين بالكفر، ويستحل دماءهم بغير حق، ويشهر عليهم السيف.

لقد رأينا الجماعات التى نسبت نفسها إلى الجهاد، وسميت (جماعة الجهاد) فى عدد من البلاد الإسلامية، تستبيح قتل المسلمين الأبرياء، حتى أصدر بعضهم (فتوى عظيمة الشأن فى جواز قتل الأطفال والنسوان)! يعنى من المسلمين.

وخارج الدائرة الإسلامية وجدنا من يتصور الجهاد على أنه قتال الناس جميعا لإكراههم على الدخول فى الإسلام، أو إخضاعهم قسرا لحكم المسلمين.

والحق: أن كلمة (الجهاد) تعنى بذل الجُهد (الوسع)، أو تحمل الجَهد (المشقة) فى نصرة الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر والفساد بكل وسيلة مشروعة، بدءا بالنفس، وانتهاء بالعالم.

الفرق بين الجهاد والقتال:

فكلمة (الجهاد) أوسع بكثير من كلمة (القتال). وكل مسلم يجب أن يكون مجاهدا، وليس من الضرورى أن يكون مقاتلا، لأن القتال إنما يجب بأسبابه.

فالقرآن يقول: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (الحجرات: ١٥) فجعل الجهاد من لوازم الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (المائدة: ٣٥) فأمر الجهاد كما أمر بالتقوى، وصيغة الأمر فى القرآن تقتضى الوجوب.

ولم يكتف بمجرد الأمر بالجهاد، بل أمر بالجهاد حق الجهاد، فقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨).

فقسم هنا مهمة الجماعة المؤمنة إلى ثلاث شعب: شعبة تحدد العلاقة بالله تعالى، وتتمثل فى الركوع والسجود وعبادة الله تعالى. وشعبة تحدد العلاقة

بالمجتمع، وتتمثل فى فعل الخير، وشعبة تحدد العلاقة بقوى الشر، وتتمثل فى الجهاد. ولم يكتف القرآن بأى جهاد، بل قال: (وجاهدوا فى الله حق جهاده). وحق الجهاد هو الذى يبذل الإنسان فيه أقصى جهده لنصرة الحق، ومقاومة الباطل، وإشاعة الخير، ومطاردة الشر.

غاية الجهاد:

والمهم: أن يكون هذا الجهاد (فى الله) أى فى سبيله، وابتغاء مرضاته، وقد فسر الرسول ذلك فى القتال فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله». وكلمة الله، هى: كلمة الحق والعدل، والخير والمعروف.

مراتب الجهاد وأنواعه:

لقد قسم الإمام ابن القيم الجهاد إلى ثلاث عشرة مرتبة، منها: أربع فى جهاد النفس، ومرتبتان فى جهاد الشيطان، وثلاث مراتب فى جهاد المظالم والفساد والمنكرات فى المجتمع، باليد أو باللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان. وأربع مراتب لجهاد الكفار والمنافقين: باليد واللسان والمال. وإن كان جهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وفى هذا قال عليه الصلاة والسلام: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»(١). وقال: «المجاهد من جاهد هواه»(٢) «أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر»(٣) وقال عن أمراء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون: «من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٤).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم عن أنس. انظر صحيح الجامع (٣٠٩٠).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢١) عن فضالة بن عبيد، وصححه ابن حبان (٤٨٦٢) والحاكم (١/ ١١) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، وفى رواية: «المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله».

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والطبرانى والبيهقى عن أبى أمامة، ورواه أحمد والنسائى والبيهقى عن طارق بن شهاب. انظر صحيح الجامع (١١٠٠).

(٤) رواه مسلم عن ابن مسعود.

وإذا تأملنا فى السيرة النبوية، رأينا أن الرسول ﷺ وأصحابه، عاشوا ثلاثة عشر عاما فى مكة مجاهدين، ولم يكونوا فيها مقاتلين: بل كانوا يُنهَوْن عن حمل السيف، ولو كان دفاعا عن أنفسهم أمام عدوان مشركى قريش على حرياتهم وعلى حرماتهم. وكانوا يأتون النبى عليه السلام ما بين مضروب ومشجوج ومجروح، قائلين له: ائذن لنا أن نحمل السلاح دفاعا عن أنفسنا. فيقول لهم: لم أومر بذلك. ويوصيهم بالصبر وانتظار الفرج.

ولم يأت الإذن بالقتال إلا بعد الهجرة إلى المدينة، ونزول قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠).

جهاد الدعوة والتبليغ:

كان جهاد الرسول وأصحابه فى مكة: جهاد الدعوة وتبليغها لأناس مصرين على عقائدهم التى ورثوها عن آبائهم، قائلين: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (البقرة: ١٧٠).

ولقد اعتبر القرأن جهاد الدعوة والبيان: (جهادا كبيرا) كما جاء فى سورة الفرقان، حيث قال الله تعالى لرسوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ (أى القرآن) جهادا كبيرا ﴾ (الفرقان: ٥٢).

وهذا الجهاد باق إلى يوم القيامة، ووسائله اليوم كثيرة من الإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت وغيرها، ولم تقم الأمة بواحد على الألف مما يجب عليها فى هذا الجهاد.

جهاد الصبر والثبات:

وهناك جهاد آخر، عاناه الرسول وصحبه فى مكة، وهو جهاد الصبر واحتمال الأذى، والثبات فى مواجهة تحدى قوى الكفر المعتدية بالفتنة واضطهاد المؤمنين. وفى هذا نزلت الآيات الأولى فى سورة العنكبوت وهى مكية ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ

النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

وفي سورة النحل، وهي مكية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية: ١١٠).

السعى على المعيشة جهاد:

وإن مما يلفت الانتباه فى السنة النبوية: أن نجد نبى الإسلام يوسع دائرة الجهاد فى سبيل الله، حتى تشمل سعى الإنسان على معاشه، ومشيه فى مناكب الأرض، ينشد الرزق لنفسه أو لأسرته. فعن كعب بن عجرة قال: مر على النبى ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله؛ لو كان جلده ونشاطه فى سبيل الله! (يعنون: فى الجهاد والقتال). فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا، فهو فى سبيل الله.. وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»[1].

وهكذا جعل الرسول الكريم كدح المرء فى كسب عيشه: ضربا من الجهاد. ولا غرو أن قرن القرآن الضرب فى الأرض بالقتال فى سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُون في سبيل اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

تنمية قدرات الأمة العلمية والاقتصادية جهاد:

ونستطيع أن نقول: إن سعى الأمة فى تنمية اقتصادها، ورفع مستواها، وتحسين عيشها: يعتبر أيضا ضربا من الجهاد فى سبيل الله.

---

(١) ذكره الحفاظ المنذرى فى (الترغيب والترهيب) وقال: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٥) وقال: رواه الطبرانى فى الثلاثة، ورجال (الكبير) رجال الصحيح.

بل الواقع : أن كل علم يؤدى إلى قوة الأمة ، وقدرتها العلمية والاقتصادية والعسكرية : يعتبر لونا من الجهاد .

فالجهاد لا يؤدى وظيفته فى الحفاظ على الأمة ، وحماية دينها وعرضها وأرضها ومقدساتها من كل معتد عليها أو طامع فيها ، إلا إذا سبقه أشياء لا بد أن تتوافر للأمة ، مثل : صحة أبنائها ، وقدرتهم البدنية ، وقوتها الاقتصادية بحيث تتحمل تبعات الجهاد ، وتبعات الحرب . . وقدرتها العلمية والتكنولوجية ، حتى تعد للأعداء ما تستطيع من قوة ومن رباط الخيل . . وهذه تتطلب مراكز للبحث ، ومؤسسات علمية متطورة ، وطاقات (كوادر بشرية) حتى تكون قادرة على مواجهة أعدائها بقوتها الذاتية . . والقاعدة الشرعية تقول : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومن هنا كانت هذه الأمور كلها واجبة شرعا ، ولازمة دينا ، لأن واجب الجهاد لا يتم إلا بها .

الجهاد بمعنى القتال:

وأما الجهاد بمعنى القتال ، فهو أنواع : منه ما سماه الفقهاء : جهاد الطلب ، ومنه : ما سموه : جهاد الدفع . ومنه ما يمكن أن نسميه : جهاد الإعداد والإرصاد .

١ ـ جهاد الطلب (الحرب الوقائية):

فأما جهاد الطلب ـ وهو الذى ذكره الفقهاء : أنه فرض كفاية على الأمة ، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ـ فيقصد به : الجهاد الذى يطلب العدو فى أرضه ، لتأديبه على جريمة ارتكبها فى حق الإسلام أو المسلمين ، مثل : التصدى لمقاومة الدعوة الإسلامية ، أو قتل دعاتها ، أو فتنة المؤمنين بها ، واضطهادهم فى دينهم ، أو الاعتداء على المستضعفين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم من الرجال أو النساء أو الولدان ، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فهذا الجهاد هو فى ظاهره طلب للعدو فى أرضه ، ولكنه فى الحقيقة دفاع عن الذات : عن الدين والدولة ، وحقوق الإنسان ، وحقه في اعتناق ما يرضى من الدين . كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٣) ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ

أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١) ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة: ١٣).

وجهاد الطلب هذا يشمل: ما يسمونه فى عصرنا (الحرب الوقائية) التى تقوم بها بعض الدول، إذا وجدت بعض خصومها أو المتربصين بها، يعدون العدة لغزوها وتهديدها فى عقر دارها، فتقوم بضربات استباقية، من باب الوقاية لحدودها، والحماية لسيادتها.

٢ ـ جهاد الدفع (مقاومة المحتلّين):

وأما جهاد الدفع، فهو الجهاد الذى تدفع به الأمة عدوا غزاها فى أرضها، فهى تقاومه حتى لا يدخل، أو يتوغل، وإذا دخل فهى تطارده حتى يجلو عن أرضها ويرحل.

فهذا النوع من الجهاد هو جهاد المقاومة والتحرير لأرض الإسلام من الغزاة، وقد أجمع فقهاء الإسلام على أنه فرض عين على كل بلد غزاه واحتله، بحيث يجب على أهله جميعا أن ينفروا لمقاومته، كل بما يكلف به ويقدر عليه. وتسقط هنا الحقوق الفردية لتعارضها مع الحق العام للأمة، فلا يحتاج الابن إلى أذن أبويه، ولا المرأة إلى إذن زوجها، ولا الخادم إلى إذن سيده، لأن حق الأمة ـ وهو حق الله وحق الإسلام ـ مقدم على حق الفرد.

وعلى سائر المسلمين معاونة هؤلاء المعتدين بكل ما يحتاجون إليه من مال وسلاح ورجال وعتاد، فالمسلمون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وإذا عجز أهل البلد عن مقاومة الغزاة: انتقل واجب الجهاد والمقاومة على من يليهم من جيرانهم المسلمين، الأقرب فالأقرب، ثم على من يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة، لأن تحرير الأرض الإسلامية: فريضة على الأمة كلها بالتضامن.

وكما أن واجب الجهاد ينتقل إلى من يليهم عند عجزهم، فهو ينتقل أيضا إليهم عند تقاعسهم وقعودهم عن الجهاد الواجب. ولا يقال: إنهم إذا قعدوا عن الدفاع عن أراضيهم فلا يستحقون أن ندافع عنهم، فنكون (ملكيين أكثر من الملك) كما

يقال. ذلك لأن أرضهم هذه تعتبر أرض الإسلام، أى أرض الأمة كلها، لا يجوز التفريط فيها بحال، لأنها إذا ضاعت ضاعت على الأمة، وكانت الخسارة والمصيبة على الأمة كلها.

وهذا الجهاد هو الذى جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤)، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١).

٣ ـ جهاد الإعداد والإرصاد:

وأما جهاد الإعداد والإرصاد، فلم يسمه الفقهاء بهذا الاسم نصا، ولكنى أخذته من كلامهم، فقد ذكروا فى الجهاد الذى هو فرض كفاية على الأمة: جهاد الطلب، وهو قصد العدو فى داره، وتتبعه فى أرضه، مرة فى كل سنة. وذكروا بديلا عن هذا القصد أو الغزو، بحيث يسقط فرض الكفاية عن الأمة، وهو: شحن الثغور ومواطن الخوف أو الخطر بالمقاتلين الأكفاء المدربين، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من عُدد وأسلحة ومركبات، ترهب العدو، وتشعره بقوة المسلمين، وتوئسه من مجرد التفكير فى غزو المسلمين؛ لأنهم لو حاولوا ذلك لوجدوا القوات المسلحة الإسلامية لهم بالمرصاد، ولكالوا لهم الصاع صاعين، وبذلك يعلمون أن لحم المسلمين مُر، وأن حماهم غير مستباح. وهذا ما قرره علماء الشافعية والحنفية.

وهذا الإعداد والإرصاد امتثال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ورباط الخيل فى عصرنا: يعنى: إعداد المصفحات والمجنزرات والدبابات وغيرها من الآليات، فهذه هى خيل العصر.

وقد أحسن الفقهاء حين قالوا: إن هذا الإعداد والإرصاد ـ وما يلزمه ويسبقه من الإعداد العلمى والتكنولوجى والاقتصادى والتنموى والتربوى ـ يكفى عن الغزو

ويقوم مقامه فى كسر شوكة الأعداء، وإخماد جذوتهم، وقطع أطماعهم من المسلمين.

ومن روائع ما جاء فى آية (إعداد القوة): أنه علل ذلك بقوله (ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإن العدوّ إذا رأى ما أعددتم له من سلاح ورجال وحسن تدريب، فكر ألف مرة قبل إن يقترب منكم أو يمس طرفكم، رهبة منكم، وخوفا من قوتكم. وهذا ما يحفظ السلام بينه وبينكم. وهذا ما يعبرون عنه بـ (السلم المسلّح). وبهذا ينجو الطرفان من ويلات الحرب وأثارها على الإنسان والحياة.

رغبة الإسلام فى السلم:

وهذا يتفق مع رغبة الإسلام فى (السلم) وحرصه عليه، فهو لا يخوض الحرب إلا مكرها، كما قال تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾ (البقرة:).

أما إذ انتهت الخصومة بين الطرفين بغير صدام ولا دماء ولا قتال، كما حدث فى غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، فالقرآن يعتبر ذلك خيرا ونعمة، ويذكر ذلك فى معرض الامتنان من الله علي عبادة المؤمنين، كما قال تعالى معلقا على الغزوة المذكورة ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**﴾ (الأحزاب: ٢٥).

وكذلك تعليق القرآن على (صلح الحديبية) بعد أن كادت المعركة تشب نارها، بانزال سورة الفتح، وفيها بقول تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾ (الفتح: ١)، ويسأل عمر: افتح هو يا رسول الله؟ فيقول: «نعم هو فتح». لم يتصور عمر فتحا بغير حرب.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تتمنوا لقاء العدو. وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» متفق عليه.

فهو يربى المسلم على حب السلام، وسؤال العافية والسلامة من ربه، وعدم تمنى لقاء العدو فى معركة، ولكن إذا اضطر إلى المعركة كان رجلا، وتسلّح بالصبر والمصابرة وحب الشهادة فى سبيل الله.

وروى النسائى وغيره أيضا «اتركوا الترك ما تركوكم، ودعوا الجنسة ما ودعوكم» فإذا لم يبدءوا المسلمين، لم يبدأهم المسلمون، وتركوهم وشأنهم.

بل إن الرسول كان يكره مجرد كلمة (حرب) ولا يحب أن يسمعها، فقد علم أصحابه قائلا: «أحب الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن، وأصدق الأسماء: حارث وهمام، وأقبح الاسماء: حرب ومرة» وكان العرب فى الجاهلية يسمون ابناءهم حربا ومرة، فكره للمسلمين أن يسموا أبناءهم بذلك، حتى لا يتعودوا سماع كلمة (حرب). وكفى بهذا حرصا على السلام.

وحتى لو اضطر المسلمون إلى الحرب، ثم مال العدو إلى المهادنة والمسالمة، فالمسمون مطالبون أن يجيبوه إلى ذلك بأمر من ربهم ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ (الأنفال: ٦١، ٦٢).

موقف خطابنا الدينى:

لاشك أن خطابنا الدينى فى قضية الجهاد وما يتعلق به، قد دخله كثير من الخلل عند عدد من الفصائل المنسوبة إلى الإسلام، وجرتْ بسبب ذلك أحداث دامية فى عدد من بلاد الإسلام. وأريقيت دماء، واستبيحت حرمات بغير حق، وغلب العنف على الرفق، والقسوة على الرحمة.

ولكن بعض هذه الجماعات قد أعلنت فى شجاعة الرجوع عن موقفها، والاعتذار عما وقع منها. وهذا ما فعلته (الجماعة الإسلامية) فى مصر، التى يتزعمها الشيخ عمر عبدالرحمن فك الله أسره. فقد أصدرت أربع كتب تصحح فيها مفاهيمها القديمة. وتخرج عن اطارها التقليدى، حتى إنهم نقلوا من كتبى صفحات وصفحات، وكانت كتبى من المحرمات عندهم.

ومن الواجب على السلطة والمجتمع أن يشجعوا هذه الجماعة، ويقبلوا توبتها، كما يقبل الله التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويبدل سيئاتهم حسنات.

ولا تزال بعض الجماعات مصرة على مواقفها، معلنة الحرب على من حولها،

كما ظهر ذلك فى عدد من البلاد، مثل الرياض والرباط واليمن وغيرها، حتى وجدنا بعض هؤلاء يطلق النار على من يصلون فى المساجد!

وعلينا أن لا نيأس من هؤلاء ونحاربهم، فقد جربنا أنهم فى النهاية سيندمون ويراجعون كما راجع غيرهم، ولكن للأسف لا يستفيد أحد من تاريخ من سبقه. لابد أن يبدأ من الصفر، ونخوض التجربة بنفسه، ويرى بالممارسة أن لا جدوى للعنف، ولا تجنى من ورائه ثمرة قط، الأ سفك الدماء، وخراب الديار، وجلب السخط واللعنة على من قام به.

ولكن يجب أن نذكر هنا: أن من الضلال المبين، والظلم الشنيع: اعتبار المجاهدين بحق، الذين يدافعون عن أوطانهم ومقدساتهم وحرماتهم وبيوتهم ومزارعهم وحياتهم المهددة من قبل المحتلين الطغاة، اعتبارهم ارهابيين مجرمين! فى حين يُعتبر القتلة السفاحون أبرياء أطهارا أبرارا يدافعون عن أنفسهم!

إن هذا هو القلب المتعمدّ للحقائق، والوقوف المتحيز مع الباطل المتجبر، ومع الغاصب الظالم، ومع المحتل الآثم.

ومثل هذا المنطق الجائر المتعجرف لا يساهم فى حل المشكلات، ولكنه لن يزيد النار إلا اشتعالا، ولا الجسم إلا اعتلالا. والحل إنما هو فى نصرة الحق، والقيام بالقسط الذى بعث الله به رسله، وأنزل كتبه «ليقوم الناس بالقسط»، وبه قامت السموات والأرض.

١٤- ينصف المرأة ولا يجور على الرجل

الإسلام يحرر المرأة من ظلم الجاهلية:

ومن خصائص خطابنا الإسلامى فى عصر العولمة: أنه ينصف المرأة، ويقف بجانبها، ويحررها من ظلم الجاهليات المختلفة، سواء كانت جاهلية عصور التخلف والتراجع الحضارى عند المسلمين، حين حبسوها فى البيت، وحرموا عليها أن تذهب إلى المسجد، أو المدرسة أو الكتّاب، وزوجوها بغير إذنها، وحرموها فى كثير من البلاد من ميراثها، وأشاعوا حولها أحاديث مكذوبة مثل: «شاوروهن وخالفوهن» ومثل: «لا تسكنوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة».

أم كانت جاهلية القرن العشرين الوافدة من الغرب، التى تريد أن تخرج المرأة من فطرتها، وأن تسلخها من جلدها، وأن تجعل منها رجلا أو كالرجل، وأن تبيح لها كل شيء، وأن تجعلها تتمرد على الزوجية وعلى الأمومة، وعلى الأنوثة، وتحرضها على التبرج والعرى، والتمرد على الأسرة وأعبائها، والاكتفاء بزواج النساء بالنساء... إلخ.

الخطاب الإسلامى يتبنى موقفا غير موقف هؤلاء وهؤلاء، وهو موقف يستمده من فهمه المتوازن للإسلام، من ينابيعه الصافية: من كتاب الإسلام، ومن سنة نبى الإسلام، ومن هدْى صحابة الرسول الكرام، وهو موقف يعطى المرأة حقها، كما يعطى الرجل حقه. كما يطالب كلا منهما بواجبه، ولا يعتبر هناك صراعا بينهما.

ومن أين يأتى الصراع؟ فالمرأة هى أم الرجل، وهى ابنته، وهى زوجته، وهى أخته، وهى عمته وخالته، فلماذا يفترض الناس خصومة أو معركة بينهما؟!

إن هذه الخصومة بعيدة كل البعد عن العقيدة الإسلامية، وعن الشريعة

الإسلامية، وعن الحضارة الإسلامية. ربما كان ذلك فى نحل أو فلسفات أخرى تنظر إلى المرأة نظرة فيها توجس أو ريبة.

الإسلام ينصف المرأة إنسانا:

جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقا خُلق لخدمة الرجل.

فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة، وأكد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف والمسئولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنسانا كريما، له كل ما للرجل من حقوق إنسانية. لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هى حواء.

فهما متساويان فى أصل النشأة، متساويان فى الخصائص الإنسانية العامة، متساويان فى التكليف والمسئولية، متساويان فى الجزاء والمصير.

وفى ذلك يقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

وإذا كان الناس - كل الناس - رجالا ونساءً، خلقهم ربهم من نفس واحدة، وجعل من هذه النفس زوجا تكمّلها وتكتمل بها كما قال فى آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩) وبَثَّ من هذه الأسرة الواحدة رجالا كثيرا ونساء، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم واحدة، فالأخوّة تجمعهم.

ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله - ربهم - ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾.

فالرجل - بهذا النص - أخو المرأة، والمرأة شقيقة الرجل. وفى هذا قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»(١).

---

(١) رواه عن عائشة أحمد (٦/ ٢٥٦)، وأبو داود (٢٣٦) والترمذى (١١٣) والدرامى (١/ ١٩٥)، كما رواه أحمد عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن جدته أم سليم (٦/ ٣٧٧)، قال الهيثمى (١/ ١٦٨): ولم يسمع إسحاق من جدته. كما نسبه إلى البزار عن أنس فى «صحيح الجامع الصغير وزيادته» الحديث رقم (٢٣٣٣).

وفى مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة، يقول القرآن: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وفى التكاليف الدينية والاجتماعية الأساسية يسوِّى القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٧١).

وفى قصة آدم توجَّه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجه سواء: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥).

ولكن الجديد فى هذه القصة - كما ذكرها القرآن - أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء - كما فعلت التوراة -: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٦).

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معا، كما كان الندم والتوبة منهما جميعا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥).. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠).. ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)، كما نسب إليه التوبة وحده أيضا: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١٢٢) مما يفيد أنه الأصل فى المعصية، والمرأة له تبع.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئته حواء لا يحمل تبعتها إلا هى، وبناتها منها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤).

وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء ودخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

فنص القرآن فى صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكرا أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، هو يكملها، وهى تكمله، لا يستغنى عنها، ولا تستغنى عنه، وهذا معنى (بعضكم من بعض).

ويقول تعالى: ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (النحل: ٩٧)، ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ (النساء: ١٢٤).

وفى الحقوق المالية للمرأة، أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عربا وعجما - من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن فى التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة. فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن. . . وغير ذلك من العقود والأعمال.

ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها - كالدفاع عن نفسها - بالتقاضى وغيره من الأعمال المشروعة.

كما جعل للمرأة حق طلب العلم كالرجل، بل الواقع أنه اعتبر طلب العلم فريضة عليها. كما جاء فى الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[١] والمراد: كل إنسان مسلم، رجلا كان أو امرأة، وهذا بالإجماع.

وكذلك للمرأة حق صلاة الجماعة فى المسجد، فهى مطالبة بالفرائض والعبادات كما يطالب الرجل: الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر أركان الإسلام، وهى مثابة عليها كما يثاب الرجل، وهى معاقبة على تركها كما يعاقب الرجل، وهى مطالبة بالواجبات

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره عن أنس، وصححه الحافظ السيوطى بكثرة طرقه.

الاجتماعية كما يطالب الرجل، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١).

ومن حقها أن تجير من استجار بها، وأن تُحترم إجارتها، كما فعلت أم هانئ بنت أبى طالب يوم فتح مكة، فقد أجارت بعض المشركين من أحمائها، وأرد أخوها عليّ أن يقتله، فشكت ذلك إلى النبى ﷺ، وقالت: يا رسول الله؛ زعم ابن أمى أنه قاتل رجلا قد أجرته: فلان بن هبيرة! فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[1].

المرأة بنتا:

وكما كرم الإسلام المرأة وأنصفها إنسانا: كرمها وانصفها بنتا، فاعتبرها هبة من الله، ولم يعتبرها شؤما ولا نكبة كما كان يفعل العرب فى الجاهلية ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩).

ويكفى أن الإسلام حمى البنت من (الوأد) الذى حرمه أشد التحريم، واعتبره من كبائر الإثم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: ٨، ٩).

بل اعتبر القرآن البنت هبة ونعمة من الله تعالى ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى: ٤٩).

ولم يجعل الإسلام لأبيها الحق فى أن يزوجها بغير رضاها، بل لابد من استئذانها فيمن تتزوجه، وموافقتها عليه، ولو بالسكوت، إن منعها الحياء من الكلام.

المرأة زوجة:

وكما كرم الإسلام المرأة وأنصفها بنتا: كرمها وأنصفها زوجة، وجعل لها من الحقوق على الزوج مثل ما عليها من الواجبات له، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ

---

(١) متفق عليه عن أم هانئ، انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقى برقم (١٩٣).

الَّذي عَلَيْـهِنَّ بِالْمَـعْـرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرجَـةٌ ﴾ (البـقـرة : ٢٢٨) أى أن الحـقـوق والواجبات متكافئان بين الطرفن، ولكن عبء الرجال أكبر، لما عليهم من القيام بمسئولية القوامة على الأسرة. كما قال تعالى: ﴿ الرِّجالُ قوَّامون على النِّساء بمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وبمَا أَنفقُوا منْ أمْوالهمْ ﴾ (النساء : ٣٤).

وهذه القوّامية على الأسرة لا تعنى استبداد الرجل بالمرأة، واعتبار الزوجة كمًّا مهملا، ولا يشاورها فى أمر، ولا يشركها فى شىء، فهذا ينافى أمر المؤمنين عامة بالتعاون على البر والتقوى، ووصف مجتمعهم بقوله: ﴿ وأمرهم شورىٰ بيْنهمْ ﴾ (الشورى : ٣٨). وقوله تعالى فى حالة فطام الأطفال ﴿ فإنْ أرادا فصالا عن تراضٍ مِّنْهُمَا وتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ علَيْهِمَا ﴾ (البقرة : ٢٣٣).

وقد اعتبر القرآن الزوجية : آية من آيات الله فى كونه، مثل خلق السموات والأرض، وأقامها على دعائم ثلاث: السكون النفسى، والمودة (أى عاطفة المحبة) والرحمة . قال تعالى : ﴿ ومنْ آياته أنْ خلق لكُم مِّنْ أنفسكُمْ أزْواجا لتسْكُنُوا إليْها وجعل بينكُم مَّودَّةً ورحْمَةً ﴾ (الروم : ٢١).

كما عبر القرآن عن العلاقة الحسية بين الزوجين تعبيرا جميلا حين قال وهو يتحدث عن عبادة الصيام وأحكامه : ﴿ أُحلَّ لكُمْ ليْلة الصِّيام الرفثُ إلىٰ نسائكُمْ هُنَّ لبَاسٌ لَّكُمْ وأَنتُمْ لبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة : ١٨٧) وكم لهذه العبارة البليغة من معنى جميل توحى به كلمة (اللباس) فهى تشير إلى القرب واللصوق والدفء والزينة والستر والوقاية، من كل منهما لصاحبه.

ويحرص الإسلام على أن تستمر الحياة الزوجية فى هدوء وسكينة، وأن لا يعكر صفوها شىء، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فقد جرت سنة الله أن يحدث الاختلاف، وقد شرع الإسلام علاج الخلاف بوسائل شتى، ولكن إذا لم تجد هذه الوسائل، فآخر الدواء الكى، وليس هناك إلا الطلاق عند تعذر الوفاق. ولا يفرض الإسلام على الزوجين أن يعيشا تحت سقف واحد، وبينهما من الكراهية ما بينهما. وقد قال أحد الحكماء: أن من أعظم المصائب مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك!

نصح الإسلام كلا الزوجين بالصبر على الآخر، وأن لا يستجيب لعاطفة

الكراهية أول ما يحس بها، كما قال تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩)

ولكن قد يطفح الكيل، ولا نجد حلا غير هذه العملية الجراحية التى نضطر إليها، دفعا لألم محقق أو تفاديًا لما هو أخطر منها.

وقد ضيق الإسلام فى إيقاع الطلاق: فى وقته: بأن يكون فى طهر لم يمسسها فيه، وفى عدده، فجعل أقصاه ثلاث مرات، ثم لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره زواجا طبيعيا، ويطلقها الأخر طلاقا طبيعيا. وفى حالة وقوعه، بأن يكون فى حالة اختيار ورضا، لا فى حالة اكراه أو غضب شديد، لما جاء فى الحديث (لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق)[1].

ثم جعل الشرع للمطلقة حق النفقة مدة العدة، وحق المتعة بالمعروف، وهذه تختلف من زوجة لأخرى، فالزوجة التى عاش معها عشرين أو ثلاثين سنة، ليست كالتى عاش معها بضعة أشهر.

وكما أن للزوج حق الطلاق إذا كره المرأة، ولم يستطع الصبر عليها كما أمر الله، فإن للمرأة مخارج شرعية للتخلص من الزوج إذا كرهته، أو إذا ضارّها وأذاها.

ففى حالة كراهيتها له، اعطاها الشرع حق الخلع، فتفدى نفسها منه بإن تدفع له ما غرم عليها من مهر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

ولكن إن كان هو الكاره لها، فلا يحل له أن يأخذ منها فلسا واحدا. كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ٢٠).

وإذا اذاها وضارها، أو حدث شقاق بينهما لم يحلاه بينهما، فعندها مخرجان:

الأول: اللجوء إلى «التحكيم العائلى» كما أمر بذلك القرآن ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٩٢) وابن ماجه (٢٠٤٦) عن عائشة.

بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء: ٣٥).

ومن حق الحكمين إذا رأيا الخير فى الاصلاح وجمع الشمل: أن يجمعا، وإن رأيا التفريق أن يفرقا، كما حكم بذلك الصحابة رضى الله عنهم.

والمخرج الثانى، هو: اللجوء إلى القضاء، فمن سلطة القاضى أن يطلق على المضار لزوجه المسىء إليها: جبرا عنه، وينفذ حكمه، ولها كل حقوقها.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا: أن الإسلام أباح للرجل أن يتزوج بأخرى لحكم شرحها العلماء بتفصيل. فقد يحتاج إلى زوجة تنجب له أولادا حيث لم تنجب زوجة الأولى، فهو يبقيها عنده.. رعاية لحق العشرة، ويتزوج أخرى. وقد تكون زوجته الأولى مريضة، أو قليلة ارغبة فى الرجال، أو تطول عندها مدة الحيض، والإسلام يحرم معاشرة المرأة فى الحيض، واليهودية أشد من الإسلام فى ذلك.

وقد تكون عدد النساء الصالحات للزواج أكثر من عدد الرجال القادرين على الزواج، أفلا يكون من مصلحة المجتمع أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة، لتصريف هذا العدد الفائض، بدل أن يعشن محرومات من حياة الزوجية وعاطفة الأمومة أبد الدهر. وقد يتعلق قلب الرجل بامرأة يحبها وتحبه، وهو قادر على النفقة والإحصان، فلماذا لا نتيح لهما الارتباط الحلال، بدل التفكير فى الحرام؟

إن الذين يزعمون أن الزواج الثانى ضد المرأة: يتحيزون لجانب المرأة الأولى، وينسون الزوجة الثانية، التى قبلت هذا الزواج لمصلحتها وإشباع فطرتها وحاجتها.

والغربيون الذين ينكرون التعدد على المسلمين يعددون عمليا، ولكن بلا ضوابط ولا حدود، ولا التزام أخلاقيا أو دينيا ولا قانونيا.

المرأة أما:

وكرم الإسلام المرأة كذلك وإنصفها أما، وأكد الوصية بها، حتى أوصى الرسول بها ثلاث مرات، وبالأب مرة واحدة. سئل عليه الصلاة والسلام: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: ثم أبوك. متفق عليه.

وإنما أكد الوصية بها؛ لأنها هى التى تعبت أبلغ التعب، وعانت شديد المعاناة فى سبيل الحمل والوحم والولادة والإرضاع والرعاية والتربية، كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان: ١٤).

وشاع عند المسلمين: أن الجنة تحت أقدام الأمهات. وقد أخذوا ذلك من حديث الصحابى الذى جاء إلى النبى يسأذنه فى الجهاد، فقال له: هل لك أم؟ قال: نعم. قال: «الزمها، فإن الجنة عند رجلها»[1].

المرأة عضوا فى المجتمع:

وكرم الإسلام المرأة، كذلك وأنصفها: عضوا فى المجتمع، فهى مكلفة بالوظائف الاجتماعية، التى كلف بها الرجل، وعلى رأسها: وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى بها يحافظ المجتمع المسلم على هويته ومقوماته وخصائصه، وهى وظيفة مشتركة بين الجنسين بصريح القرآن: قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (التوبة: ٧١).

والأصل فى الخطاب القرآنى والنبوى: أنه للرجال والنساء جميعا، إلا ما قام دليل على تخصيصه لأحد الجنسين. ماذا قال تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أو ﴿ يأيها الناس ﴾ فإن المخاطب بذلك الرجل والمرأة جميعا.

وقد سمعت أم سلمة ـ وهى فى بيتها وماشطتها تمشطها ـ الرسول يقول: (يأيها الناس) فتركت ما كانت مشغوله به لتذهب وتسمع ما يقول فى خطابه، فقالت لها الماشطة: إنه يقول: أيها الناس. فقالت لها: أنا من الناس.

إن الإسلام بهذه الأحكام والتعاليم قد انصف المرأة وأنصف الرجل جميعا، وجندهما جميعا ليعملا فى طاعة الله تعالى، وفى خدمة المجتمع الصالح، وتكوين الأسرة الصالحة التى تقوم على الأمومة الحانية، والأبوة الراعية، والأخوة المشفقة، والقرابة الواصلة، والتى يؤدي كل فرد فيها واجبه، قبل أن يطالب بحقه. همه أن

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٤٧) عن معاوية بن جاهمة السلمى.

يقول: ماذا على؟ قبل أن يقول: ماذا لى؟ على خلاف مجتمع الحضارة الغربية التى غلبت عليها المادية والنفعية، والتى تربى الناس على طلب الحقوق قبل أداء الواجبات.

لا يتصور فى شريعة الإسلام أن يحيف على المرأة لحساب الرجل؛ لأن الذى أنزل هذه الشريعة وأوحى بها إلى خاتم رسله، ليس رجلا، أو لجنة من الرجال، حتى يجوروا على النساء، ولكنه رب الرجال والنساء جميعا، الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى، والذى شرع لهما ما يصلحهما ويرقى بها دينا ودنيا.

خطابنا الدينى:

ولكن يجب أن تعترف به: أن فى كثير من خطابنا الإسلامى، وبخاصة بعض المدارس منه: أنه يتبنّى تيارا متشددا ضد المرأة، فهو يعتبرها مخلوقا دون الرجل، وأن عليها أن تلزم بيتها ولا تخرج منه إلا مضطرة لحاجة أو علاج أو نحو ذلك، وأن النساء الصالحات قديما، كن يخرجين من منزلهن مرتين: مرة إلى بيت الزوج، ومرة إلى القبر. وأن وجه المرأة عورة، لا يجوز لها كشفه، وبعضهم قال: لا تتعلم إلا ما يمحو أميتها، وبعضهم قال: تتعلم القراءة دون الكتابة!! وبعضهم قال: لا تتعلم إلا المرحلة الابتدائية.

وبعضهم يلوكون أحاديث لم يحسنوا فهمها، ولم يضعوها فى موضعها الصحيح، مثل حديث: (إن المرأة خلقت من ضلع)[1] وحديث: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للب الرجل الحازم معكن)[2].

جعلوا هذه الأحاديث أصلا، وبنوا عليها نظراتهم إلى المرأة وموقف الإسلام منها، وجهلوا تأويلها، وأغفلوا مئات الآيات والأحاديث التى تبين موقف الإسلام حقا من المرأة.

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل ذلك، وقد فصلنا ذلك فى كتبنا المختلفة، وخصوصا فى كتابنا (فتاوى معاصرة) بإجزائه الثلاثة، وفى كتابنا (مركز المرأة فى الحياة الإسلامية) وفى غيرها.

---

(١) رواه البخارى (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨) عن أبى هريرة.

(٢) رواه البخارى (٣٠٤) عن أبى سعيد الخدرى، ومسلم (٨٠) عن عبدالله بن عمر.

كما فصل أخونا وصديقنا الأستاذ عبدالحليم أبو شقة رحمه الله موقف الإسلام السمح الرحب من المرأة فى كتابه، بل فى موسوعته (تحرير المرأة فى عصر الرسالة) من ستة أجزاء، فليرجع إليه.

إن كثيرا من المتحدثين باسم الدين يسيئون إليه أبلغ الاساءة من حيث يحسبون أنهم يحسنون، ويفسدون من حيث يظنون أنهم مصلحون.

ولا علاج لهذا الخلل إلا بترشيد الخطاب الدينى، وتسديده، ونصرة تيار الوسطية الإسلامية، المعبر عن وسطية الإسلام، ونهجه السمح المعتدل، وصراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

١٥- يحفظ حقوق الأقلية ولا يحيف على الأكثرية

ومن خصائص الخطاب الدينى الإسلامى فى عصر العولمة : أنه يحرص كل الحرص على حقوق الأقليات الدينية فى الوطن العربى والإسلامى ، ويحفظ لها كيانها الخاص ، ويصون شخصيتها الدينية ، ويرعى حرمات معابدها وشعائرها ، ولا يتدخل فى هذه الشئون الخاصة بها ، ولا يفرض عليها شيئا من عباداته أو فرائضه التى لها طابع دينى ، رعاية لمشاعرهم وأحاسيسهم .

وخصوصا الأقليات الدينية فى الوطن العربى ، فهم من أهل الكتاب الذين ميزهم الإسلام بوضع خاص ، فأجاز أكل طعامهم وذبائحهم ، كما أجاز الإصهار إليهم والتزوج من نسائهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة : ٥) .

والنصارى منهم لهم وضع أخص ، كما أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة : ٨٢) .

ومنذ فجر الإسلام أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة ، لأنهم نصارى ، فهم أقرب إلى المسلمين ، وكان ملكهم النجاشى رجلا عادلا مؤمنا بدينه ، فآواهم وأجارهم ، وأبى أن يسلمهم إلى قريش .

وقد عرضنا لموقف الإسلام من الأقليات فى أكثر من كتاب ، منها (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى) ورسالة (الأقليات الدينية والحل الإسلامى) وكتاب (أولويات الحركة الإسلامية) وبعض الفتاوى والبحوث فى كتابنا (فتاوى معاصرة)

الجزء الثانى ، وكتابنا (من فقه الدولة فى الإسلام) . كما بينا ذلك فى محاضرات شتى فى أكثر من بلد .

وأعتقد أن اجتهادنا فى هذه القضية الكبيرة قد استبانت معالمه ، واتضحت صورته فى ضوء الأدلة الشرعية ، ولقى القبول من جمهرة العلماء والدعاة ، وتبناه الكثيرون منهم ، وإن كان بعضهم لم ينسب الاجتهاد لصاحبه ، كما قال السلف : من بركة القول أن يسند إلى قائله .

كيف تحل مشكلة الأقليات الدينية؟:

ويمكن أن أقتبس هنا بعض ما كتبته ، لإيضاح موقف الاجتهاد الإسلامى المعاصر من هذه القضية الخطيرة ، التى يستغلها أعداء الأمة بين الحين والحين ، لأغراض فى أنفسهم ، لإثارة الفتنة الطائفية ، حتى إنهم فى أمريكا اليوم - بتأثير اللوبى الصهيونى - يزعمون أن الأقباط مضطهدون دينيا فى مصر ، وهو زعم لا أساس له ، يكذبه الأقباط أنفسهم .

ويتلخص موقفنا فيما يلى :

١ - لا وجه لدعوى بعض الناس وجلهم من العلمانيين الذين لا يوالون الإسلام ولا المسيحية : أن الاتجاه إلى الحل الإسلامى والشرع الإسلامى ينافى مبدأ الحرية لغير المسلمين ، وهو مبدأ مقرر دوليا وإسلاميا ، فقد نسوا أو تناسوا أمرا أهم وأخطر ، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامى والحل الإسلامى من أجل غير المسلمين - وهم أقلية - ينافى مبدأ الحرية للمسلمين فى العمل بما يوجبه عليهم دينهم ، وهم أكثرية . بل الواقع أن المسلمين ليسوا أحرارا ولا مخيرين فى العمل بموجب شريعتهم ، إذ هو فريضة عليهم من ربهم .

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية ، فأيهما نقدم؟

إن منطق الديموقراطية - التى يؤمنون بها ويدعون إليها - أن يقدَّم حق الأكثرية على حق الأقلية .

هذا هو السائد فى كل أقطار الدنيا ، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس ، فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين . وإنما بحسب نظامٍ ما أن ينال قبول الأكثرية

ورضاهم، بشرط ألا يحيف على الأقلية ويظلمهم، ويعتدى على حرماتهم، وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم.

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك، وتمسكت بأن تنبذ الأكثرية ما تعتقده دينا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية دكتاتورية على الأكثرية، وأن يتحكم مثلا خمسة ملايين أو أقل، فى ستين مليونا أو أكثر. وهذا ما لا يقبله منطق دينى ولا علمانى.

٢ ـ وهذا على تسليمنا بأن هنا تعارضا بين حق الأكثرية المسلمة وحق الأقلية غير المسلمة.

والواقع أنه لا تعارض بينهما. فالمسيحى الذى يقبل أن يحكم حكما علمانيا لادينيا، لا يضيره أن يحكم حكما إسلاميا. بل المسيحى الذى يفهم دينه ويَحرص عليه حقيقة، ينبغى أن يرحب بحكم الإسلام، لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء، والجزاء فى الآخرة. كما يقوم على تثبيت القيم الإيمانية، والمثل الأخلاقية، التى دعا إليها الأنبياء جميعا، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة، فكيف يكون هذا الحكم ـ بطابعه الربانى الأخلاقى الإنسانى ـ مصدر خوف وإزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر؟ على حين لا يزعجه حكم لادينى علمانى يحتقر الأديان جميعا، ولا يسمح بوجودها ـ إن سمح ـ إلا فى ركن ضيق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحى المخلص أن يقبل حكم الإسلام، ونظامه للحياة، فيأخذه على أنه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المسلم على أنه دين يرضى به ربه، ويتقرب به إليه.

ومن الخير للمسيحى ـ كما قال الأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله ـ أن يأخذه المسلمون على أنه دين، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل فى تنفيذه، وعين الله ترقبهم، لا رهبة الحاكم التى يمكن التخلص منها فى كثير من الأحيان[1].

---

(١) من رسالة (دستورنا) للأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين.

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامى بوصفه السد المنيع فى وجه المادية الملحدة التى تهدد الديانات كلها على يد الشيوعية العالمية، كما نقلنا ذلك من كلام العلامة فارس الخورى[1].

وأود أن أصحح هنا خطأ يقع فيه كثيرون، وهو الظن بأن القوانين الوضعية المستوردة من الغرب المسيحى قوانين لها رحم موصولة بالمسيحية، فهذا خطأ مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخية يعرفون ذلك جيدا. بل الثابت بلا مراء أن الفقه الإسلامى أقرب إلى المسيحية والمسيحيين فى أوطاننا من تلك القوانين، لأصوله الدينية من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة التى هم جزء منها.

٣ ـ والإدعاء بأن سيادة النظام الإسلامى فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم: إدعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة. فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد. وفى ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﷺ: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس ٩٩) وفى الثانية يقول سبحانه وتعالى فى أسلوب جازم: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وجاء عن الصحابة فى أهل الذمة: «اتركوهم وما يدينون».

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم، فى حرية وأمان، كما هو منصوص عليه فى العهود التى كُتبت فى عهد أبى بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء (القدس).

ومن شدة حساسية الإسلام: أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينية، باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى ـ مع أن الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكرية ـ وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على

---

(١) انظر: كلامه فى كتابنا (بينات الحل الإسلامى) ص ٢٥٨ ـ ٢٦١، ورسالتنا الأقليات الدينية والحل الإسلامى). وفارس الخورى من كبار الشخصيات المسيحية، وقد كان رئيس وزاء سورية فى بعض الأوقات.

الرءوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهى ما يسمى (الجزية).

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاءون. فإن نصارى بنى تغلب من العرب طلبوا من عمر بن الخطاب: أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحا على ذلك، وقال فى ذلك: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم![1].

أما شعبة الأخلاق فهى - فى أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض.

بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الذين ينظم علائق الناس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأمته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام.

فمن اختار منهم نظام الإسلام فى المواريث مثلا - كما فى بعض البلاد العربية - فله ذلك، ومن لم يرد فهو وما يختار.

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم فى ذلك كشأنهم فى أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبية.

وبعض المذاهب الإسلامية لا تلزم أهل الذمة أو غير المسلمين بالتشريع الجنائى مثل إقامة الحدود والعقوبات الشرعية، كقطع يد السارق، وجلد الزانى أو القاذف، ونحو ذلك. وإنما فيها التعزير.

وتستطيع الدولة الإسلامية الأخذ بهذا المذهب إذا وجدت فيه تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، كما فعلت ذلك جمهورية السودان الإسلامية، بالنسبة للمناطق التى تسكنها أغلبية غير إسلامية.

---

(١) انظر: المغنى لابن قدامة ج٩ م ٣٣٥، ٣٣٦ط. مطبعة العاصمة، شارع الفلكى بالقاهرة.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا، وإلا لجئوا إلى القضاء الإسلامى، كما سجل ذلك التاريخ.

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجبا، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراما، ولا على اعتناق أمر دينى لا يرون اعتناقه بمحض اختيارهم.

كل ما فى الأمر: أن هناك أشياء يحرمها الإسلام مثل الخمر والخنزير، وهم يرونها حلالا، والأمر الحلال للإنسان سعة فى تركه، فللمسيحى أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه فى دينه، بل لا أظن دينا يشجع شرب الخمور، ويبارك حياة السكر والعربدة. وكل ما فى كتبهم: أن قليلا من الخمر يصلح المعدة،[1] ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم فى موقفهم من الخمر والسكر.

وكذلك بوسع المسيحى أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة فى الدين، ولا سنة من سنن النبيين، بل هو محرم فى اليهودية قبل الإسلام. ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر، ويتاجروا فيهما فيما بينهم، وفى القرى التى تخصهم، على ألا يظهروا ذلك فى البيئات الإسلامية، ولا يتحَدّوْا بها مشاعر المسلمين. وهذه قمة فى التسامح لا مثيل لها[2].

ومنذ عدة سنوات دعيت من قبل نقابة الأطباء فى مصر لندوة حول (المشروع الحضارى الإسلامى) فى (دار الحكمة) بالقاهرة، وكان المفروض أن يشاركنى أحد الأساتذة المعروفين،[3] ولكنه اعتذر، فانفردت بإلقاء الموضوع، وبيان مقومات مشروعنا الحضارى الإسلامى والذى يعمل على إصلاح الفرد، وإسعاد الأسرة، وترقية المجتمع، وبناء الأمة الفاضلة، وإقامة الدولة العادلة، وإنشاء عالم متعارف وعلاقات إنسانية سوية.

---

(١) هو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح عليه السلام.

(٢) انظر: فصل (الأقليات الدينية والحل الإسلامى) من كتابنا (بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين). وقد نشرت فى رسالة مستقلة. من (رسائل ترشيد الصحوة)، وانظر أيضًا: كتابنا (غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى).

(٣) هو الأستاذ إسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط فى عهد عبدالناصر، ومن ممثلى الفكرى اليسارى فى مصر.

وبعد ذلك كانت أسئلة ونقاشات وتعليقات. وكان من أبرز هذه الأسئلة: سؤال من الأخ الدكتور جورج إسحق الذى سأل بصراحة: أين موقعنا، يا دكتور قرضاوى ـ نحن الأقباط ـ فى هذا المشروع؟ هل نظل أهل ذمة؟ أو نحن مواطنون؟ هل ستطالبنا بدفع الجزية أو ندفع ما يدفع المسلمون؟ هل نحرم من وظائف الوطن أو يأخذها من يستحقها منا بأهليته؟ . . إلخ هذا النوع من الأسئلة.

وقلت للدكتور إسحاق: إن المشروع الحضارى هو لأهل دار الإسلام جميعا، المسلمين منهم وغير المسلمين، وفقهاء المسلمين متفقون على أن أهل الذمة من (أهل الدار) أى دار الإسلام، وإن لم يكونوا من (أهل الملة) ومعنى أنهم من أهل الدار: أنهم مواطنون، ينتمون إلى الوطن الإسلامى، فهم مسلمون بحكم انتمائهم إلى الدار، أو الثقافة والحضارة. وهذا ما عبر عنه الزعيم المصرى القبطى المعروف مكرم عبيد حين قال: أنا نصرانى دينا، مسلم وطنا! وهذا ما قلته للدكتور لويس عوض حين زارنا فى الدوحة مشاركا فى إحدى الندوات، وطُلب منى أن أعقب على الندوة، فقلت له: أنا مسلم بمقتضى العقيدة والملة، وأنتَ مسلم بمقتضى الثقافة والحضارة. ومعنى هذا أن المسيحى المصرى أو العربى يحمل (الجنسية الإسلامية) أى جنسية (دار الإسلام)، وهو بحكم عروبته وثقافته يحمل (الانتماء الثقافى والحضارى) لأمة الإسلام.

وكلمة (الذمة) كثيرا ما تُفهم خطأ، ويظن بعض الناس أنها كلمة ذم أو انتقاص، مع أن معناها: العهد والضمان أى أنهم فى عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين وفى ضمانهم، لا يجوز أن ينتقض عهدهم أو تخفر ذمتهم من أحد.

وإذا كانت كلمة (أهل الذمة) تؤذى الأقباط وأمثالهم، فإن الله لم يتعبدنا بها، وقد حذف الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ما هو أهم منها، (كما ذكرنا من قبل) وهو كلمة (الجزية) المذكورة فى القرآن، حين طلب بنو تغلب ذلك، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن عرب، ونأنف من كلمة (جزية) ونريد أن تأخذ منا ما تأخذ باسم الزكاة أو الصدقة، كما تأخذ من المسلمين، فقبل منهم ذلك، ونظر إلى أصحابه وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[1].

---

(١) انظر: كتابنا (السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها) ص ٢١٦ نشر مكتبة وهبة.

وفى عصرنا يتأذى إخواننا من المسيحيين وغيرهم من هذه التسمية، فلا مبرر للإصرار على بقائها، والعبرة للمقاصد والمعانى لا للألفاظ والمبانى.

ولقد ذهبت من قديم فى كتابى (فقه الزكاة)[1] إلى أن ولى الأمر المسلم يجوز له أن يأخذ من غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ضريبة تساوى فريضة الزكاة، ولنُسمها (ضريبة التكافل) توحيدا للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد والدار الواحدة، وأيدت ذلك بأدلة شرعية من داخل الفقه الإسلامى، وهذا ما أخذت به جمهورية السودان منذ عهد نميرى.

وقد ذكرت فى (فقه الزكاة)[2] أن من فقهاء المسلمين عددا أجازوا دفع الزكاة لغير المسلمين، وقد نقل ذلك عن عمر رضى الله عنه.

ومما يذكره التاريخ أن عناصر من أهل الكتاب أسهمت فى بناء الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، لا تزال أسماء بعضهم معروفة مشهورة، ولم يمنعها دينها أن يكون لها دور تؤديه فى خدمة العلوم والفنون والصناعات المختلفة.

ولقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة (وزارة التنفيذ)، وهو ما قرره القاضى الماوردى وغيره من فقهاء السياسة الشرعية.

والعامل المهم هنا هو: وجود الثقة المتبادلة بين الفريقين، وألا يتطلع غير المسلمين إلى المناصب التى لها طبيعة دينية، كما لا يجوز للمسلمين أن يتدخلوا فى الشئون الدينية لغير المسلمين، أو يضيقوا عليهم فيها بغير حق.

والأصل العام فى التعامل هو هذه القاعدة التى يتناقلها المسلمون خاصتهم وعامتهم: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهذا، فيما عدا ما اقتضاه الاختلاف أو التميز الدينى بطبيعة الحال لكل من الطرفين، فهم غير مطالبين بالصلاة ولا بالصيام ولا بزكاة الفطر ولا بالكفارات، ولا بالحج وغيرها من فرائض الإسلام.

ومن المهم جدا أن يكون من حق الأكثرية المسلمة أن تحتكم إلى شريعة ربها،

---

(١) جـ١/ ١١٢ ـ ١١٧ طبعة وهبة الحادية والعشرون.

(٢) جـ٢/ ٧١٢ ـ ٧١٤.

وتطبقها فى شئونها، على ألا تحيف على حقوق الأقلية. ويجب على الأقلية ألا تضيق صدرا بذلك، وهو ما كان عليه الأقباط طوال العصور الماضية والحديثة، قبل كيد الاستعمار ومكره، ولم نرهم يتبرمون بالنص على أن دين الدولة الإسلام، بل رأيت كثيرا من عقلاء المسيحيين فى مصر وفى غيرها طالبوا مخلصين بوجوب تطبيق الشريعة وأحكامها وحدودها، ورأوا فى ذلك العلاج الناجع للجرائم والرذائل فى مجتمعاتنا.

وكما أن الأقلية رضيت بالقوانين المستوردة من الخارج، ولم تجد فى ذلك حرجا، فأولى بها أن ترضى بشريعة الإسلام، فهى قطعا أقرب إلى المثل العليا التى جاءت بها المسيحية من القوانين الأجنبية، ثم هى قوانين (الدار) التى تعيش فيها الأقلية وتتعامل معها، فالمسلم يتقبل الشريعة على أنها دين وانقياد لله، وغير المسلم يتقبلها على أنها قانون ونظام رضيته الأغلبية، شأنه شأن سائر الأنظمة والقوانين.

قلت هذا الكلام أو نحوه فى الإجابة عن سؤال د. جورج إسحاق، وصفق الحاضرون إعجابا وقبولا، وبعد انتهاء الندوة، جاء الدكتور إسحاق يشد على يدى، ويقول لى: ليتك يا دكتور قرضاوى تأتى إلى الكنيسة لتقول هذا للأقباط فى عقر دارهم، فإن عندهم هواجس ومخاوف كثيرة من تطبيق شريعة الإسلام، وربما ساهم فى هذا الخوف بعض المتشددين من المسلمين.

وقلت للدكتور: أنا لا أمتنع عن هذا إذا دعيت، والواجب علينا البيان والبلاغ حتى لا تلتبس الأمور، وتفهم الحقائق على غير وجوهها، ويستغل أعداء الأمة ذلك، ليوقدوا نار الفتنة، ويضربوا أبناء الأمة الواحدة بعضهم ببعض، وهم المستفيدون أولا وآخرا.

أما الآراء المتشددة والمضيقة، والتى تتمسك بحرفية ما جاء فى بعض الكتب التى كتبت فى زمن غير زمننا، ولمجتمع غير مجتمعنا، وفى ظروف غير ظروفنا، فهى لا تلزمنا، وقد قرر المحققون من علمائنا: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وقد تغير كل شىء فى حياتنا كماً وكيفا، عما كان عليه أيام هؤلاء الفقهاء.

وأما حديث «لا تبدءوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق» فهذا مقيد

بأيام الصراع والحروب، لا بأيام الاستقرار والسلام، وقد كان بعض الصحابة يقرأ السلام على كل من لقيه من مسلم وغير مسلم، عملا بالأمر بإفشاء السلام.

وهل من المعقول أن يبيح الإسلام للمسلم الزواج بالمسيحية ولا يبيح له أن يسلم عليها؟ وهل يمنع الولد أن يسلم على أمه أو على خاله أو خالته أو جده أو جدته؟ وقد أمره الله بصلة الرحم، وإيتاء ذى القربى؟.

وحسبنا هذا النص القرآنى العام المحكم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

موقف خطابنا الدينى:

لا أنكر أن بعض الخطباء الدينيين لم تتضح لهم هذه المعانى التى ذكرناها موثقة بأدلتها، ولا زالوا يعيشون فى الأفق الضيق، نتيجة لأفهام جامدة فرضتها بعض المدارس الإسلامية التى تجنح إلى الغلو، فى موقفها من الناس، مسلمين وغير مسلمين، فهى تكفر كثيرا من المسلمين، وتعادى غير المسلمين. وتمسكوا بنصوص متشابهات، ولم يردودها إلى المحكمات. وكثيرا ما وضعوا النصوص فى غير مواضعها، أو لم يفهموها فى ضوء أسبابها وملابساتها، ومقاصدها، بل تمسكوا بحرفيه بعض النصوص الجزئية، وأغفلوا المقاصيد الكلية للشريعة.

ونحن نؤمن أن كل بشر - وإن بلغ فى العلم ما بلغ - يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ؛ لأن اجتهادات البشر محكومة بظروف بيئتها وعصرها وثقافتها، ولا تستيطع أن تقفز فوق الزمان والمكان.

وعلى المجتهدين بعدهم أن يستأنسوا بها، ويستعيدوا منها باعتبارها تراثا علميا يساعد على الفهم، لا قيدا يمنع من حركة الفكر، وتجديد الاجتهاد.

وفى اعتقادى: أن الأئمة الأقدمين الذين لم نرتض اجتهادهم فى هذه القضية أو فى غيرها: لو تأخر بهم الزمن، ووجدوا فى عصرنا، لكان لهم اجتهاد آخر غير اجتهادهم القديم. فطالما رأيناهم غيروا اجتهادهم فى حياتهم، وغيره أصحابهم من بعدهم. ولم يجد العلماء فى ذلك حرجا ولا غضاضة. ولكل مجتهد نصيب، وإنما لكل امرئ ما نوى.

وقد حرصت على إبراز الوجه الوسطى للخطاب الإسلامى، فإن أكثر ما تشكو منه أمتنا فى مجال الفكر والدعوة والثقافة، هو : الجنوح إلى الغلو والتنطع من ناحية، أو إلى التسيب والانفلات من ناحية أخرى. كما قال الحسن البصرى من قديم : إنما يضيع الدين بين الغالى فيه والجافى عنه، أى المفرّط فيه.

وأحمد الله تعالى : أن الله تبارك وتعالى قد وفقنى منذ بدأت الكتابةوالتأليف إلى تبنّى نهج الوسطية والاعتدال، القائم على التيسير فى الفتوى والتبشير فى الدعوة، والتجديد فى الدين، والاجتهاد فى الفقه، والتسامح مع الأخر، والسلام مع المسالم، والجهاد للمعتدى. وليس هذا النهج وليد أحداث ١١ سبتمبر (٢٠٠١) ولا رد فعل بأىّ وجه.

وهو ليس نهجى وحدى، بل هو نهج المجددين والمصلحين من قبلنا : محمد عبده ورشيد رضا، وجمال الدين القاسمى، ومحمود شلتوت، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد يوسف موسى، وحسن البنا، وعبدالحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمى، وعلال الفاسى، ومصطفى السباعى، ومحمد المبارك، ومصطفى الزرقا، وعلى الطنطاوى، ومحمد الغزالى، وسيد سابق، إلى المعاصرين وهم كثر فى أنحاء العالم الإسلامى لا أستطيع أن أذكرهم جميعا. وكلهم أسماء تتبنى نهج التسامح والسلام والاعتدال والتجديد، وهو ما ينهض به تيار الوسطية الذى تحدثَتْ عنه بأقدار متفاوتة. ولكنها جميعا تشترك فى الاتجاه العام لهذا التيار الذى يمثل القاعدة العريضة فى الأمة.

صحيح أن تيار الغلو والتشدد عالى الصوت، ولكنه لا يمثل فى الواقع إلا أقلية فى المسلمين. وإنما أبرزه الإعلام الغربى، والإعلام العربى والإسلامى، كما أبرزه كثرة المظالم التى تقع على المسلمين من الصهيونية العالمية، المؤيدة من الصليبية الغربية، التى يمثلها الآن : اليمين المسيحى المتطرف فى أمريكا، والذى أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين فى كل مكان تحت عنوان (الحرب على الإرهاب) ووقف مساندا للعدوان الإسرائيلى على الفلسطينيين على كل صعيد، بالمال والسلاح والفيتو.

ولهذا طالبنا الأمريكان وغيرهم الذين يطالبوننا بتغيير خطابنا الدينى : أن

يراجعوا هم أيضا خطابهم الدينى، الذى يتبناه اليمين المسيحى المتطرف فى الولايات المتحدة، ويقوم على تفسيرات تبرر اغتصاب أرضنا بالباطل، وتشريد أهلها بالقوة الغاشمة، وهى تفسيرات يخالفه فيها عامة المسيحيين، فنحن نطالبهم أن يغيروا خطابهم القائم على الاستعلاء واستباحة حرمات الآخرين.

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٣٢١/٢٠٠٣
الترقيم الدولى x - 1021 - 09 - 977

مطابع الشروق
لقاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت·٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت · ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)